21 عامًا
السنة الحادية والعشرون (يناير - مارس) ٢٠٢٦

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

104
WWW.HIRAGATE.COM
Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary |January - March 2026

سُلَّم الوصول

ما دمتَ تملكُ مِفتاحَ العُلا ثَبْتا ... البابُ دونكَ فاصعدْ وقْتما شئْتا
كَم مِن دُروبٍ لنورِ اللّهِ موصلةٍ ... فلا تُضيّعْ قُواكَ في خُطًا شتَّى
يـومُ القيامـةِ آتٍ يـا لَـهَـيْـبـتِهِ ... وَفِيهِ تُسْألُ عمَّا أنـتَ فـرَّطْتَا!

٢ القرآن-٢ **فتح الله كولن**
٢٢ دور الأخلاق في حماية البيئة **د. صابر علي عبد الحليم**
٤٨ كيف تكشف العربية أسرار الشريعة؟ **حورية بلقاسمي**

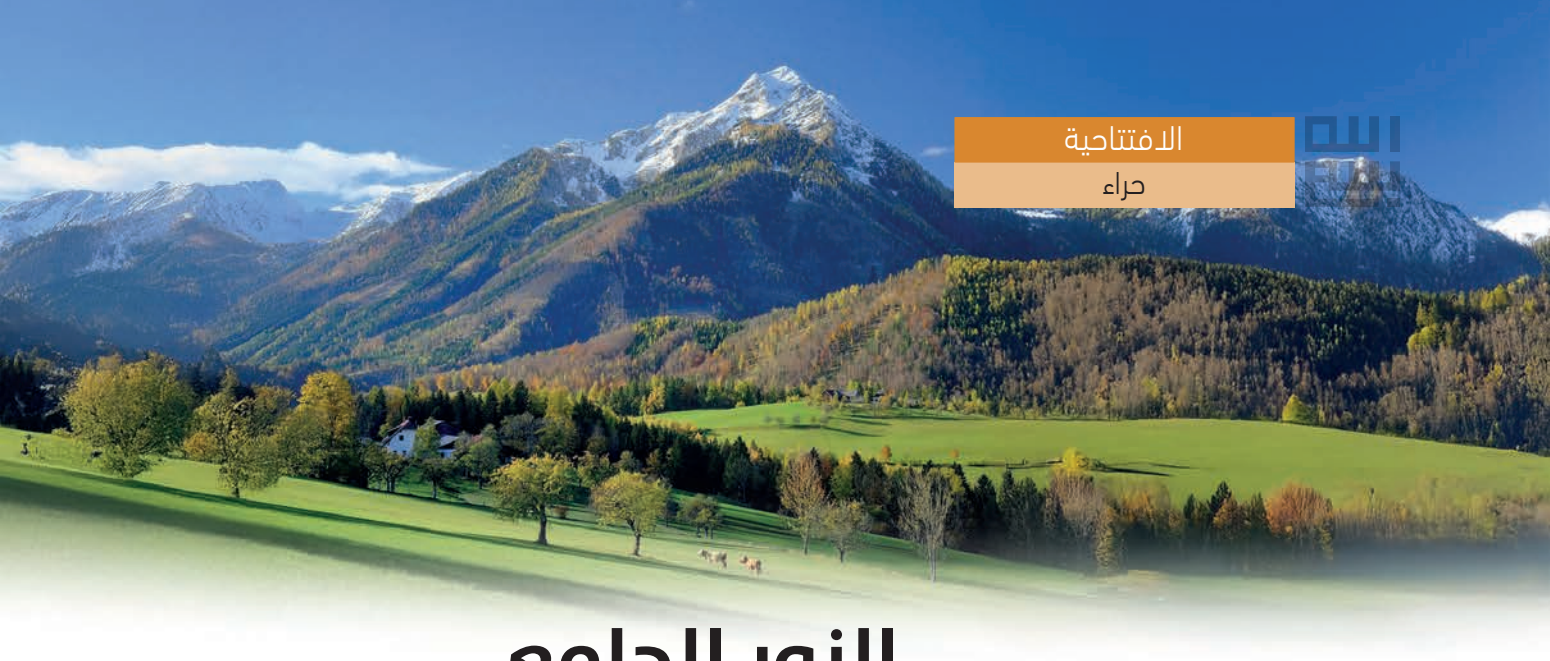

النور الجامع

منذ عددها الأول، جعلت "حراء" الانفتاح على تنوّع الساحات وتباين الاتجاهات أساسًا لخطّها الثقافي، تعبيرًا عن احترامها لقرّائها وتعدد اهتماماتهم. ويجسّد هذا العدد هذا التوجه بثرائه الفكري وتنوعه الثقافي شكلاً ومضمونًا.

في مقاله الرئيس، يدعو الأستاذ "فتح الله كولن" إلى الدخول في رحاب القرآن الكريم؛ بوصفه نورًا جامعًا احتضن الإنسان والكون، وحمل معه العلوم، فكشف أسرار الوجود، ونظّم الحياة القلبية والروحية والفكرية، ودلّ الإنسان على أسمى الغايات، وأرشده إلى بلوغها بالعدل والرحمة، مع إقامة الحواجز أمام الشرور والآثام.

و"حورية بلقاسمي" في مقالها "كيف تكشف العربية أسرار الشريعة؟"، تبيّن أن اللغة العربية هي المفتاح المنهجي الذي يفتح أبواب التدبر، والمنظومة المعرفية التي تكشف أسرار الشريعة ودقائق الإعجاز البلاغي. وللوصول إلى جوهر هذا الفهم، يؤكد "خالد صلاح حنفي محمود" في "التربية بين الأنسنة والرقمنة" على ضرورة تربية الأجيال في مدرسة الأنسنة، مشددًا على أن التربية التي لا تؤَنْسِن الإنسان، تنتج كائنات فاقدة للهوية، بينما تعيد التربية الإنسانية للمجتمع تماسكه وللحضارة إنسانيتها.

ويأخذنا "يحيى وزيري" إلى زاوية حيوية في فقه العمران، حيث يتحدث عن "عمران بلا أسوار خفية"؛ وهو توجه في تصميم المدن والمباني ليكون فضاءً إنسانيًّا يحتضن الجميع بكرامة، خاصة كبار السن وذوي الهمم. أما "صابر علي عبد الحليم" فيتناول "دور الأخلاق في حماية البيئة"، مشيرًا إلى أن الأخلاق هي الأداة التي تحرك الإنسان للحفاظ على أمنه وسلامة كوكبه، باعتبارها قناعة إيمانية سلوكية.

وتنتقل بنا "داليا فهمي السيد" من جماليات الروح إلى عالم "الخط العربي" وموسيقاه الصامتة التي تعبر عن الجمال والكمال، مستعرضة كيف تمتلك الحروف العربية طاقة هائلة من الحركة والرشاقة والإيقاع. كما يناقش "عبد الرؤوف توتي بن حمزة" ظاهرة "البودكاست" التي أحدثت نقلة نوعية في عالم الثقافة، بوصفها أداة ديمقراطية تمنح صوتًا للجميع، وتعزز الحوار العميق في عصر يتسم بالسرعة والتشتت.

وفي باب الأسرار العلمية، نكتشف من خلال مقال "صهباء بندق"، كيف يتحول "النوم العميق" إلى دورة شَطْف ليليةٍ تنظف الدماغ من النفايات الضارة التي تراكمت خلال النهار. كما نتأمل هداية الخالق للكائنات في عالم الفيزياء، بدءًا من تتبع زهرة دوار الشمس للشمس، وصولاً إلى البراعة الفطرية للقطط في فهم قوانين الحركة والجاذبية، وذلك من خلال مقال "ناصر أحمد سنه".

وفي ختام هذا الاستعراض، لا بد من الإشارة إلى ما يزخر به العدد من مواضيع قيمة لأقلام نيرة، تضفي على صفحاته فسحة جمالية ومتعة ترويحية للقارئ. والله من وراء القصد. ■

المحتويات

القرآن–٢ / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
إبداعات فنية من عالم الطير والحيوان / خلف أحمد محمود أبو زيد (علوم)	٦
عمران بلا أسوار خفية / أ.د. يحيى وزيري (ثقافة وفن)	١٠
التناغم الحركي لموسيقى الخط العربي / د. داليا فهمي السيد (ثقافة وفن)	١٤
الفراسة بين العلم والخرافة / د. محمد السقا عيد (قضايا فكرية)	١٨
دور الأخلاق في حماية البيئة / د. صابر علي عبد الحليم (قضايا فكرية)	٢٢
التربية بين الأنسنة والرقمنة / د. خالد صلاح حنفي محمود (تربية)	٢٦
هل الانتظار زمن ضائع؟ / محمود مصطفى حلمي (أدب)	٣٠
المنهل العذب المورود / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
هداية المخلوقات لقوانين الفيزياء / أ.د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٣٤
الرؤى المنامية؟ / د. أحمد محمد القزعل (علوم)	٣٨
المدينة الفاضلة من خلال كتاب "النور الخالد" / أ.د. عبد العظيم أحمد عبد العظيم (قضايا فكرية)	٤١
الترتيب الداخلي للنفس وحاجتنا إليه / د. مصطفى محمود حنفي (قضايا فكرية)	٤٥
كيف تكشف العربية أسرار الشريعة؟ / حورية بلقاسمي (قضايا فكرية)	٤٨
البودكاست نقلة نوعية في عالم الثقافة / عبد الرؤوف توتي بن حمزة (علوم)	٥٢
هل يساعد النوم حقًّا في تنظيف الدماغ؟ / د. صهباء بندق (علوم)	٥٦
العوالم العُلْوية عند فتح الله كولن / أيهم العلي (قضايا فكرية)	٦٠

القرآن-٢

هناك العديد من المفكرين المعاصرين الذين يرون أن العصر القادم سيكون عصر القرآن. والحقيقة أننا إن دققنا قليلاً لرأينا أن عصرنا الحالي بدأ يتجه إلى القرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصور.

أجل، حتى أصحاب أكثر النظرات بلادة وسطحية، يستطيعون حدس كيف أن القرآن مرتبط بالكون ومتداخل معه، وكيف أن جميع بياناته حول الوجود صائبة، فلا يملكون أنفسهم من الإعجاب بقوة تأثيرها ونورانية عالمها.

والذين يعملون في ساحة العلم والعرفان والحكمة، يطالعون هذا الكتاب العظيم بكل رغبة ولذة، ويشهدون أنه يشرح أسرار الوجود والأمور الدقيقة الموجودة في روح الطبيعة ويضعها أمام أنظارهم.

إن القرآن هو الذي يتناول كل جزء من أجزاء الوجود بعمق، فيوضحها ويشرح غاياتها ومحتوياتها وأسسها بشكل لا مجال فيه لأي تردد أو شبهة.

يتناول القرآن المعجز البيان أيضًا الحياةَ القلبية والروحية والفكرية للإنسان وينظمها، ويريه أسمى الغايات والأهداف، ثم يأخذ بيده ليوصله إلى هذه الأهداف، ويوصيه بالتعامل معها بكل لطف ورحمة وشفقة وعدالة، ويضع بينه وبين السيئات والشرور عقباتٍ وموانعَ لا يمكن تخطيها.

القرآن هو البيان الإلهي الذي يقيم النعم الإلهية المعطاة للإنسان، كالصحة والعافية والقابلية والقوة أفضل تقييم، ويشير إلى أفضل الطرق للاستفادة المثلى من هذه المواهب والهبات، وينقذ الناس دون أن يشكل بعضهم لبعض مشكلة أو عبئًا.

إنه كتاب ومنبع للضوء، بحيث يقدح في أرواحِ مَنْ عشقه واتبعه، فكرة الحرية ومفهوم العدالة وروح الأخوة والرغبة في مساعدة الآخرين ومعاونتهم، والعيش من أجلهم، بحيث يكاد يجعل من هؤلاء -المخلوقين من دم ولحم- شبه ملائكة يسعون في الأرض، ويريهم الطريق المؤدي بهم إلى سعادة الدارين، ويفتح أبواب هذه السعادة على مصاريعها أمامهم.

إنه كتاب إرشاد يسير أمام الذين فتحوا أعينهم على الحقيقة بهدايته، ويأخذ بأيديهم ليسيح بهم وراء الآفاق ووراء هذا العالم، ويجول بالقلوب المشبعة بالاطمئنان في أجواء المهابة، ويُسكر الأرواح المفكرة بالإعجاب والدهشة والذهول ويثملها، وينفح في الضمائر الطاهرة نفحات الخير في كل آن.

هو بيان باهر إلى درجة أنه يعد هذا الإنسان -الذي أرسل إلى الدنيا بأسمى روح وفي أحسن تقويم- بأفضل صورة من صور السعادة والهناء، وبأفضل شكل من

عندما ظهر القرآن المبين واحتضن الشرق والغرب والشمال والجنوب، وضمهم إلى حضنه بيديه النورانيتين، صحب معه العلوم إلى كل الديار التي احتضنها، وحوَّل أرجاء الأرض إلى ما يشبه سفوح الجنة.

أشكال السمو والعلو والرقي، وأكثر أنماط الحياة إنسانية بأقوم الطرق للوصول إلى ذروة "الإنسان الكامل".

ألم يكن هذا الكتاب المجيد هو الذي نظَّم حقوق الفرد وحقوق الجماعة، ونظَّم العلاقة بينهما من ناحية التعامل والسلوك والوظائف والمسؤولية؟ ألم يعيِّن المفاهيم الصحيحة لحقائق الحرية والعدالة والمساواة وحققها بخطوة واحدة بينما كان العالم أجمع يسبح في دياجير الظلام والغفلة والضلالة؟ ألم يحقق أفضل صراع ضد الظلم والطغيان؟ ألم يَدْع إلى رحمة وشفقة إنسانية، بل إلى رحمة وشفقة تشمل جميع الأحياء؟ ألم يضع للحرب وللصلح مقاييس إنسانية فجعل أتباعه دعاة الأمن والاطمئنان فوق الأرض وممثليه، ورموز التوازن فيها؟

يا له من كتاب نوراني يذكّر الإنسان بعجزه وفقره من جهة فيكسر حدة غروره وأنانيته، ويشعل فيه أشواقه من جهة أخرى، ويدعوه لأن يشرع أشرعته للرحيل إلى ما وراء هذا الأفق.

يا له من مجموعة نفحات ربانية يؤمِّن كل أمر فيه آلاف الفوائد، ويذكرنا في كل نهي بأضرار لا تخطر على البال، ويأخذ بيدنا إلى سفوح الأمن والأمان. وفي اللحظة التي يثير قلوبنا برسائل العدالة والإحسان والأمانة ويرينا آفاق الجنة.. في اللحظة نفسها تتوالى تحذيراته عن المنكرات والخلُق السيئ أو الاعتداء على أموال وأعراض وأرواح وحقوق الآخرين. وتتكرر دعوته لنا للالتجاء إلى حماية الله وصيانته.

إنه كتاب يؤمن بسمو درجات جميع الأنبياء والمرسلين السابقين وبجميع الكتب والصحف المنزلة

hiragate.com

عليهم ويعتبرها كتبًا وصحفًا مباركة. وعظم منزلة التوراة والإنجيل والزبور خاصة، وعدّها كتبًا مباركة، مع القيام بالحل والفصل في الأمور المختلف فيها، وتصحيح ما حُرِّف فيها، والإيمان بما حفظ منها ولم يمس بتغيير. أي إنه عثر على الكتب القديمة المفقودة بوجه من الوجوه وأظهرها، وذكر أنبياءها بكل احترام وتوقير، ولا سيما النبي موسى عليه السلام والنبي عيسى عليه السلام، حيث اعتبرهما ضمن "الأنبياء من ذوي العزم". وبذلك برهن أنه كتاب ينطق بالحق. ثم ذكر بأن والدتَي هذين النبيَّيْن العظيمَين كانتا مظهرًا للإلهام، أي كانتا تملكان قلبًا وروحًا متميزين عن سواد الناس، وبذلك أثبت لجميع أصحاب القلوب السليمة، أنه نزل لإحقاق الحق ووضع كل شيء في نصابه.

إنه الكتاب الذي أنقذ الإنسان من جميع أنواع الانحرافات، وأرشده إلى طريق الفضيلة، ووعد الذين ينفِّذون أوامر الله تعالى، بجنان فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر. وتَوعّد الذين يخالفون أوامره بيوم تهلع فيه القلوب، وتزيغ فيه الأبصار، وتبلغ فيه القلوب الحناجرَ، فوضع بذلك توازنات مدهشة احتارت لها العقول.

لقد نال هذا الكتاب شرف البقاء نقيًّا ومصونًا عن التحريف وعن التبديل من بين جميع الكتب منذ تشريفه الدنيا، ومحافظًا على الوحي كما أنزل على الرغم من اعتداءات المفكرين والملحدين المساكين، الذين لا يعرفون شيئًا سوى العداوة والكراهية وبذل المحاولات لتغييره وتبديله، وعلى الرغم من الأصدقاء المغفلين الذين لا يعطون للصداقة حقها.

عندما نزل القرآن كأفضل جوهرة من جواهر اللوح المحفوظ، نزل بمنزلة وبشرف لا يُدانى. وهو اليوم محافظ على هذه المنزلة الرفيعة كما هي، بل ربما أكثر، أما في السنوات القادمة فسيكون هو الكتاب الذي تتنافس الشموس؛ لكي تزين تاجه.

عندما ظهر القرآن المبين واحتضن الشرق والغرب والشمال والجنوب، وضمهم إلى حضنه بيديه النورانيتَين، صحب معه العلوم إلى كل الديار التي احتضنها، وحوَّل أرجاء الأرض إلى ما يشبه سفوح الجنة. والذين تمسَّكوا به آنذاك، وحملوا رسالته النورانية ومثَّلوه بصدق، كانوا هداة البشرية والمرشدين إلى "الحضارة القرآنية". لقد كان هؤلاء المرشدون من مستوى رفيع، بحيث إن الذين يدّعون اليوم أنهم معلمو الإنسانية لا يستحقون -لو كانوا في زمان هؤلاء المرشدين- إلا أن يكونوا تلاميذَ لهم يتعلمون منهم.

لقد جاء القرآن المجيد برسائل نورانية أزلية وأبدية، وربَّى إلى جانب أبداننا وأجسامنا قلوبَنا وأرواحَنا وعقولَنا وضمائرَنا، وهيأَنا لنَكون إنسان المستقبل بعد أن أرانا الذُّرى الموجودة وراء الشواهق المادية والمعنوية. ولا شك أن كل أمة أو دولة تملك عقلاً ووعيًا، سترى فيه في المستقبل منبعًا ثرًّا يجب الارتشاف منه مرارًا، على خلاف رأي بعض من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

ولو تصرَّف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل -علمًا أن هناك حركة ملحوظة في هذا الاتجاه حاليًّا- لاحتلُّوا مكانة مرموقة في التوازن الدولي الحالي في وقت قصير، ولتخلَّصوا من تقليد الآخرين والسير وراءهم، ولَمَا وجدوا السلوان في وديان التقليد الأعمى.

إن قيام الطلاب الأوائل للقرآن بتلك الحملة الإيمانية والأخلاقية التي أدهشت العالم آنذاك، يجب أن يدفع إنساننا المعاصر إلى تناول تلك الحملة بالدراسة والتدقيق بكل حرص. أجل، إن ظاهرة قيام بضعة آلاف من الصحابة -بعد ظهور الإسلام بين جبال مكة الوعرة- بحملة وبانقلاب كبير أضاؤوا به أرجاء الأرض، حادثة متميزة وخارقة للعادة يجب تدقيقها وتقييمها، وهو منبع ثرّ غنيّ يرجع إليه المؤمنون على الدوام.

لذا نستطيع أن نقول بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا به واتبعوه ولم يحيرهم كذلك، لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوّه النوراني ويؤمنون به بعد اليوم، ولن يخيّب آمالهم.. لأننا نؤمن بأن العقول

hiragate.com

عندما تضاء بنور العلوم، والقلوبَ بمعرفة الحق، وعندما يوضع الوجود تحت عدسة العلم والحكمة للتدقيق والدراسة، سيكون كل حكم صادر باسم العلم، موافقًا لروح القرآن ومتلائمًا معه.

أجل، لقد كان القرآن في كل عهد وعصر كتابًا يدعو الناس إلى العلم وإلى البحث العلمي وإلى التأمل وإلى النظام في التفكير وإلى قراءة كتاب الكون وفهم أسرار الوجود، واختار طلابه الحقيقيين من بين المفكرين والمتأملين. وهذه بعض القطرات من ذلك العباب الزاخر:

١- ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠).

٢- ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(يونس:١٠١).

٣- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

٤- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٥).

٥- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(ق:٦).

٦- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢٠-٢١).

٧- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠).

٨- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥).

٩- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣).

يقول الحق ﷻ في هذه الآية، بأنه سيري آياته في النظم الدقيقة في الأنفس وفي الآفاق، والتناغم والعظمة البادية فيها والتي لا يملّ الإنسان من النظر إليها ومشاهدة جمالها.

١٠- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا شَاءَ قَدِيرٌ﴾(الشورى:٢٩).

١١- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(يس:٣٦).

١٢- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

١٣- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس:٣٨-٣٩).

١٤- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧).

١٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾(النور:٤٣).

بمثل هذه الآيات دعا القرآن الإنسان، لكي يتفكر في الخوارق التي يزخر بها الكون وليدقق المعاني الخفية للوجود، لمشاهدة آيات الجمال المنبثة حوالينا، وسماع الأصوات الآتية من جميع الأرجاء.. أيْ يقوم برفع روحه إلى الذروة بالتأمل والتفكير.

هذه الآيات وغيرها من الآيات ذات البيان الساحر الأخاذ، تومئ وتشير إلى العديد من الاكتشافات العلمية التي شكلت أساسًا لخوارق هذه المدنية، بل حتى إلى بعض الأمور التي لم نفهمها تمامًا بعدُ، وتدعو أهل الفكر والإنصاف إلى الانتباه والتأمل. ■

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة "يني أميت" التركية، العدد:٦ (أكتوبر ١٩٨٩م)، تحت عنوان "Kur'an (2)". الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

hiragate.com

خلف أحمد محمود أبو زيد*

إبداعات فنية
من عالم الطير والحيوان

١ السائد بين البشر أن الفن نشاط إبداعي إنساني ينفرد به الإنسان وحده عن سائر الكائنات الأخرى، لكن مشاهدات علماء الطبيعة اكتشفت أن هناك أنواعًا من الطيور والحيوانات والحشرات، تتمتع بحاسة فنية وطريقة معمارية رفيعة، وأنها تحمل قدرًا من الملكات الإبداعية والفنية مثلها مثل الإنسان. والأمر الذي يدعو للعجب، أن هذه الطيور والحيوانات تمارس أنواع الفنون كافة، من زخرفة وديكور وعمارة وحتى الهندسة، وذلك بمهارة إبداعية فائقة يُظهر لنا من خلال روعة التصاميم الفنية والمعمارية الدقيقة، قدرة وعجائب الخالق ﷻ في مخلوقاته.

الدبور صانع الخزف

نبدأ مع الدبور صانع الخزف، أو باني الإبريق كما يُطلق عليه. هذا الدبور يبني عشوشه فوق أغصان الأشجار على هيئة قدور وأوان وأباريقَ خزفية. وتظل هذه الدبابير تتفنن في صنع تلك القدور والأواني والأباريق، حتى يُخرج أشكالاً فنية رائعة، ومناظر بديعة.

يشيِّد هذا الدبور الصانع للأواني الخزفية عشه عاليًا على شكل إبريق جميل؛ لكي يضع بيضه بداخله، وهو لا يُلقي ببيضه داخل الإبريق بصورة عشوائية، بل يحرص على أن يعلّق كل بيضة بخيط رفيع مرن. ولهذا الخيط الذي تُعلَّق بواسطته البيضة، وظيفة دقيقة، إذ يخرج منها الدبور الصغير إلى الحياة، فيجعل من قشرتها مسكنًا له.

ويحتاج الدبور الصغير إلى الغذاء، لكن الغذاء يكون موجودًا في قاع الإبريق، وقد جهزته الأم من قبل بكميات كبيرة استعدادًا لهذا اليوم الذي سيحتاج فيه صغيرها إليه. وعندما يشد الصغير نفسه إلى الأسفل بواسطة الخيط المرن، يصل إلى الغذاء الموجود في القاع.

وقد ينفك الخيط الذي يربط أحد صغار الدبور صانع الخزف، أثناء محاولته الوصول إلى الغذاء الموجود في القاع، لكن سرعان ما يُعيد هذا الصغير نفسه بأقصى سرعة إلى نفس الرباط في ذلك الخيط المعلّق داخل الإبريق، ثم يُكرر محاولته للوصول إلى الغذاء الموجود أسفله. ذلك هو ذوق دبورٍ يبني بيته على طراز فني جميل، وهذا هو تدبيره وحكمته، وهذا هو عين الالتزام في الفن؛ فالفن عنده مرتبط بالحاجات الاقتصادية والاجتماعية للحياة.

مهندسو الديكور

ونذهب إلى مصممي الديكور من عالم الطير والحشرات، حيث نذكر طائر التعريشة الذي يمارس الفن بطريقة مذهلة؛ فهو يُبدع في بناء عشه وتزيينه باستخدام كل ما يحتاج إليه بهدف جذب الأنثى، ويقوم بذلك بحسٍّ جمالي فردي للغاية، بمعنى أنه يعتمد على طريقته الخاصة، ويُطلق لنفسه العنان لجلب مواد غير

اكتشف الباحثون أن هناك أنواعًا من الطيور والحيوانات والحشرات، تتمتع بحاسة فنية وطريقة معمارية رفيعة، وأنها تحمل قدرًا من الملكات الإبداعية والفنية مثلها مثل الإنسان.

متوقعة، ويرتبها بطريقة جمالية فريدة.

وقد أكد العالم "جيسون ج. جولدمان" أن هذا الطائر يُبدع في بناء أعشاشه، وأحيانًا يُنشئها على شكل أبراج طويلة ذات هياكل من العِصي، ترتكز على حصيرة مستديرة من الطحالب الميتة، ويُزيّنها بأجنحة الفراشات المقطوعة، وبالزهور والقواقع أحيانًا، وبأي شيء يعثر عليه حتى من مصنوعات البشر، مفضّلاً ألوانًا بعينها، وواضعًا الزخارف بعناية وفق ترتيب محدد. وإذا ما غيّر أحد أماكنها، فإن الطائر يُعيدها إلى حيث وضعها.

أما ذبابة الأجريليا فتنشئ ديكورًا طريفًا للبيت الذي تسكنه، حيث تبني بيتها على هيئة صندوق بيضاوي أو قارووري مفتوح من الناحيتين. وهذا الصندوق يكون من الحرير الخالص، وأحيانًا من الرمال فقط، لكن سواء أكان هذا البيت من الحرير أم من الرمال، فلا بد من تزيينه بالديكور.

تستعمل ذبابة الأجريليا في تصميمات ديكور بيتها خيوطًا من طحلب "الإسبيروجيرا"، وترتب الخيوط في خطوط مفردة، وتلفها حول البيت من الخارج وعلى

hiragate.com

جوانبه من الداخل أيضًا. ومن الغريب أن هذه الحشرة عندما تتحرك أو تنتقل من مكان إلى آخر، فإنها تجرّ معها البيت بكل ما فيه. وحتى لا يتأثر ذلك الديكور الذي كلّفها الكثير من الجهد والوقت، فإن عملية الجرّ والنقل تكون على حافة واحدة من البيت.

كما شاهد العلماء والباحثون نوعًا نادرًا من العصافير الصغيرة الرفيعة يتعاون الذكر والأنثى في كل مراحل بناء عشهما، وذلك فوق جذع عال؛ وهو عش كبير يصنعانه معًا من كمية وفيرة من القش الرفيع الناعم، ولهذا العش تجويف واسع غائر، مدخله عريض كالبوابة، وأمامه ردهة من القش الناعم الوفير، هي بمثابة شرفة واسعة يمرحان فوقها في اطمئنان واستجمام.

ويُعرف هذا العصفور بـ"العصفور الأرستقراطي"، إذ لا يرضى -رغم صغر حجمه هو وزوجته- إلا ببناء هذه الفيلا من القش الذهبي المغطى بخيوط حريرية أشبه بالموكيت، وذلك زيادةً في الرفاهية والرخاء.

ومن العصفور الأرستقراطي إلى الطائر الأنيق الذي يسكن مناطق متفرقة من أمريكا، حيث يتخذ هذا الطائر من خصلات الصخور أو شظايا الحصى الرقيقة مادةً لبناء عشه المعروف باسم "ذقن الرجل الكهل". وهو عش متين حصين يَدْهش الإنسان لمرآه، ولا يملك إلا أن يتساءل: كيف يمكن لعصفور ضئيل بحجم الإصبع النحيل، أن يبني مثل هذا العش الصلب بمنقار أشبه بسن الإبرة، وبمخالب بالغة الضآلة؟!

إنه عش منتفخ رحب مريح، ينقسم من الداخل عادةً إلى ثلاث حجرات: حجرة لنوم الأب والأم، وحجرة لتخزين الطعام وحضانة البيض (وهي المطبخ)، وحجرة لصغار الفراخ.

وتغطَّى هذه الحجرات بعشب ناعم وثير أشبه بالسجادة. ويبني ذلك العصفور الأنيق عشه معلّقًا على غصن أو جذع متين، وهو غالبًا ما يطلّ على نهر صافي المياه نقي الهواء.

إبداعات معمارية

للحيوانات والطيور والحشرات باع طويل في فنون العمارة، وعندما يتأمل الإنسان طبائع هذه الكائنات في بيئاتها الطبيعية، يدرك أنها مخلوقات بنّاءة، تشيّد بيوتًا ضخمة ومعقدة التركيب، ذات حجرات منظمة وطرقات مبدعة، ثم تقوم بطلاء جدرانها وزخرفتها وتزيينها. الأمر الذي يجعلنا نضمها بكل إعجاب إلى فريق الفنيين المبدعين والمهندسين المعماريين المهرة.

ولننظر إلى ما يُطلَق عليه نحل الأنثوفورا؛ حين يشرع في تشييد بنيانه، فإنه يأتي بالماء ويضعه على التراب ويخلطهما معًا خلطًا جيدًا، صانعًا منهما خلطة جيدة تُعرف باسم "المونة". وبعد أن ينتهي البناء يقوم بطلائه من الداخل حتى يجعله ناعمًا أملس، ثم يدهنه بطريقة رقيقة مستخدمًا مادة مضادة للماء، هي إفراز لعابي من النحل نفسه، ثم يأتي بما جمع من رحيق سائل ليخزنه فيه.

ويقابلنا أيضًا نوع آخر من النحل يُطلَق عليه "كوليتيني"، ولهذا النوع من النحل أسلوب غريب

hiragate.com

وفريد في عمل بيته، إذ يحفر في الأرض حُفَرًا أسطوانية، يُحيطها بنوع غريب من الطين الموحِل، الذي عندما يجف يصبح مادة شبيهة بالذهب في لونها وبريقها. ثم يُشيّد بعد ذلك الحواجز التي تكوّن الحجرات المنفصلة، ويملأ كل حجرة منها بالطعام السائل.

أما النمل صانع الأبواب، والمعروف علميًّا باسم "ستينمما ألاس"، فهو يُشيّد بيته على هيئة كرة من الطين، ثم يصنع على مدخله بابًا قويًّا من الطين ليحُول دون دخول الأعداء والغرباء، ويظل هو حارسًا بقرب الباب يغلقه حين يظهر أحد الأعداء أو الغرباء.

الإبداع الفني في عالم الرخويات

لننتقل إلى الرخويات أو الهلاميات والأصداف والمحارات أو نجوم البحر وحيدة الخلية، وهي تبني أغلبها حصونها على شكل غطاء يلتف به جسمها حتى يصير حصنها وجسمها وحدة عضوية متكاملة. وهناك نوع من الإسفنج يبني لنفسه أبراجًا بيضاء متلألئة ذات وحدات زخرفية مجدولة بشكل معماري بديع، وتشبه وحداتها النوافذ الصغيرة التي تكاد تتطابق في مقاييسها. وتتجلى في هذا البناء مهارة هندسية فائقة، ومادة البناء هنا هي خيوط "السيليكا".

والجدير بالذكر أن أنواع الإسفنج تربو على خمسمائة نوع، ولكل نوع أسلوبه الفريد في بناء بيوته. كما اكتشف العلماء عددًا وفيرًا من الديدان البحرية التي تبني بيوتها على شكل أصداف بتشكيلات جمالية

بدرجات متنوعة، مثل دودة القوقعة الورقية التي تتميز صدفتها في تكوين بنائها بالدقة والنقاء.

وتوجد أنواع من الحشرات تدهشنا بمهارتها في بناء بيوتها، ولا يخفى علينا الحس الهندسي والدقة الإبداعية والبراعة المعمارية التي يتميز بها كبير المهندسين الفنان الذي نطلق عليه اسم العنكبوت.

ومن المفارقات الواضحة التي نذكرها في هذا الصدد، أن القِرَدة لا تهتم بتشييد بيوت لها، ولا بتنسيق أو تجميل مأواها، بل لا تهتم حتى بنظافتها، فهي كسولة بليدة عديمة الذوق، تعيش حياة فوضوية، بالرغم من علو مرتبتها في درجة الذكاء بالقياس إلى الديدان والطيور والحشرات الموهوبة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(١) الحب والفن عند الحيوان، د. كمال شرقاوي غزالي، الناشر: دار المعارف، مصر، سلسلة أقرأ، العدد:٨٠٠، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

(٢) كتاب الطبيعة، إصدار المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي.

(٣) المهندسون المعماريون في مملكة الحيوان، حسني محمد بدوي، مجلة الدوحة، عدد مايو عام ١٩٨٤م.

(٤) إبداعات من عالم الحيوان، رشيد غمري، بوابة أخبار اليوم، بتاريخ ١٣ يناير عام ٢٠٢٤م.

hiragate.com

أ.د. يحيى وزيري*

عمران بلا أسوار خفية

لـ ليست المدينة جدرانًا صامتة، ولا طرقات مرصوفة بالحجارة وحدها، بل إنها فضاء إنساني حي تُقاس قيمته بقدرته على احتضان أبنائه جميعًا بلا استثناء. فما جدوى برج شامخ إن عجز مسنّ عن الوصول إلى مدخله؟ وما قيمة مدرسة حديثة إنْ حُرم طفل كفيف من الجلوس في فصلها؟

إن العمارة رسالة إنسانية قبل أن تكون معادلة هندسية، فإذا غفلت عن جزء من المجتمع فإنها تُقيم "أسوارًا خفية" قد لا نراها مباشرة، لكن يشعر بها من يُقصى عنها عند أول خطوة.

لقد بدأ الاهتمام عالميًّا بما يُسمّى "مباني لذوي الإعاقة أو ذوي الهمم"،

حيث صُمّمت مدارس ومؤسسات لفئة محددة، لكن التجربة سرعان ما كشفت أن المشكلة ليست في الجسد، بل في التصميم. فالمنحدر الذي يُسهّل الدخولَ على شخص يستخدم الكرسي المتحرك، يساعد أيضًا أمًّا تدفع عربة طفلها، أو شخصًا أُصيب بكسر.

لقد شارك كاتب المقال مع بعض أساتذة الجامعات المصرية في صياغة أول "كود مصري لمباني ذوي الإعاقة"، ومع مرور الوقت أصبح واضحًا أن مفهوم "التصميم بلا عوائق" أوسع من التصميم لذوي الهمم فقط، ليشمل كبار السن، ومصابي الحوادث، وأي شخص يواجه صعوبة مؤقتة في الحركة، وحتى النساء في أشهر الحمل الأخيرة.

فهذه الفئات تمثّل نسبة كبيرة من المجتمع، مما يجعل من الضروري أن يصبح التصميم بلا عوائق قاعدةً عامة في المدن والمباني لا رفاهية اختيارية، بل حاجة إنسانية دائمة، لضمان بيئة معمارية صديقة للإنسان بصفة عامة.

هكذا تحوّل المفهوم من مبانٍ ذات طبيعة خاصة لفئة محدودة، إلى ثقافة مدينة شاملة للجميع. إنها نقلة نوعية من الهندسة الوظيفية إلى الهندسة الإنسانية.

الأرصفة: مسارات الحركة الأساسية

الأرصفة هي الأبجدية الأولى للحركة في المدينة، لكنها قد تتحوّل إلى حاجز مادي -مثل جدار- إذا ارتفعت أكثر مما ينبغي أو ازدحمت بالعوائق.

منحدر صغير عند الزاوية قد يفتح الطريق لطفل على كرسي متحرك، وأرضية خشنة مانعة للانزلاق قد تحمي مسنًّا من السقوط في يوم ممطر، وزرٌّ على عمود إشارة مرور يُنبّه السيارات ليعبر كفيفٌ بأمان.. إنها تفاصيل بسيطة، لكنها تعني لكثيرين، الفارق بين المشاركة والعزلة.

يُعتبر توفير أماكن لسيارات مستعملي الكراسي المتحركة في مواقف السيارات العامة أو الملحقة بالمباني العامة من أهم الوسائل التي تساعدهم على استخدام سياراتهم المجهزة -إن وُجدت- والتي يستعملونها في تنقلاتهم الخارجية للوصول إلى أماكن عملهم، أو لممارسة أنشطتهم الحياتية المختلفة بشكل طبيعي.

إن العمارة رسالة إنسانية قبل أن تكون معادلة هندسية، فإذا غفلت عن جزء من المجتمع فإنها تُقيم أسوارًا خفية قد لا نراها مباشرة، لكن يشعر بها من يُقصى عند أول خطوة.

حراء

المباني العامة: احترام كرامة الإنسان

المبنى العام بيت مشترك، لا يجوز أن يُغلق أبوابه أمام أحد. المدخل بحاجة إلى منحدر مدروس، والمصعد داخل المبنى يجب أن يسع كرسيًّا متحركًا واحدًا على الأقل، وفي الداخل تفاصيل صغيرة تروي حكايات كبيرة: كونتر استقبال منخفض يتيح للجميع الحديث بكرامة، ولوحات إرشادية واضحة تضيء الطريق للمبصرين ولمن فقدوا حاسة السمع، ودورة مياه مجهزة ومتسعة لكرسي متحرك تضمن استقلالية من يستخدمها.. كل تفصيلة هي انعكاس لمدى احترام المجتمع لكرامة الإنسان. فلا بد من مراعاة تيسير الحركة الأفقية بممرات وطرقات المبنى، حيث يتم تصميمها بمقاسات مدروسة تساعد على ذلك، مع وضع درابزين جانبي على الحوائط، وفي حالة المباني الكبيرة ذات الطرقات الطويلة، يمكن توفير مشايات كهربائية متحركة تُستخدم للانتقال من منطقة إلى أخرى.

إن المدرسة -على سبيل المثال- ليست مكانًا للتعليم فقط، بل درسًا في المواطنة؛ أن يجد الطفل الكفيف مقعده المناسب، أو الطالب الذي يستعمل الكرسي المتحرك بابًا يسهل خروجه ودخوله، يعني أنه يشعر منذ الطفولة بأنه جزء من المجتمع.

أما المسجد فهو بيت الله الذي يُفترض أن يكون مفتوحًا للجميع، لا ينبغي أن يكون السُّلم عائقًا بين المصلّي وربه. إن وجود منحدر أو مصعد، ووجود مكان مخصص للوضوء، ومساحة مهيأة لصلاة مستعملي الكراسي المتحركة، كلها مظاهر رحمة معمارية تجسد قيم الدين في صورة ملموسة.

وما ينطبق على قاعات الصلاة، ينسحب أيضًا على قاعات المؤتمرات في المباني التعليمية أو الثقافية أو

hiragate.com

في الملاعب الرياضية، حيث إنه لا بد من توفير أماكن خاصة بمستعملي الكراسي المتحركة، حتى يتمكنوا من ارتياد هذه القاعات دون عناء أو تعب.

أماكن اللعب: الفرح حق مشترك

اللعب ليس ترفًا للأطفال، بل حاجة إنسانية عميقة، لكن كثيرًا من الملاعب صُمّمت وكأنها حكر على الأصحاء. كما أن مفهوم "اللعب بلا عوائق" يفتح الساحة للجميع: ألعاب أرضية يسهل الوصول إليها، نصف المعدات المرتفعة مزودة بطرق آمنة، وأرضيات ناعمة تقلل خطر السقوط.. حتى الترفيه والفرح يجب أن يكونا حقًّا مشاعًا.

إن متعة التنزه قد تصبح عائقًا إن لم تُصمَّم وتُدرس أدق تفاصيلها بوعي؛ ففي حديقة بلا تصميم ملائم لمستخدم الكرسي المتحرك، أو شاطئ بلا ممر خشبي يتيح للمسنين الاقتراب من البحر، يتحوّل الفرح إلى مشقة. كما يمكن استخدام النباتات بحيث تصبح دليلاً حسيًّا: عطر الياسمين يرشد المكفوف، وتباين الألوان يحدد حدود الممرات، أما الأحواض المرتفعة فتتيح لذوي الصعوبات الحركية الاعتناء بالنبات دون عناء الانحناء.

ومن أهم وسائل الترفيه والرياضة أيضًا بالنسبة لكثير من الناس ممارسةُ رياضة السباحة، وبخاصة في حمامات السباحة. ولكي تصبح أكثر أمانًا لكبار السن والأطفال أو ذوي الهمم، لا بد من مراعاة تطبيق بعض المعايير الإضافية الواجب توافرها في حمامات السباحة المخصصة لاستعمال تلك الفئات، حيث يكفي منحدر لطيف أو رافعة صغيرة، ليصبح استخدام حمام السباحة متاعًا للجميع.

حلم الوصول إلى سطح المبنى

في حوار قصير تم بين كاتب المقال وبين أحد مستخدمي الكراسي المتحركة، شاركنا حلمه البسيط والإنساني في الوقت نفسه. قال إنه يقيم في الدور الأرضي من المبنى الذي يسكن فيه، مثله مثل كثير من ذوي الهمم، ويواجه صعوبة في الوصول إلى الطوابق العليا، لذا فهو يحلم بوجود منحدر أو مصعد يمكّنه من الوصول إلى سطح المبنى، لمشاهدة المحيط والاستمتاع برؤية بانورامية للحي والحدائق المحيطة بالمكان.

hiragate.com

هـذا المثـال البسـيط يعكس حقيقة جوهريـة، هي أن التصميم بلا عوائق، لا يقتصر على تيسير الحركة داخل المبنى أو تسـهيل الوصـول إلـى الخدمـات الأساسـية، بـل يمتـد ليمنح المسـتخدم شـعورًا بالحرية والمشـاركة الكاملـة فـي فضـاء المـكان. تصميم كهذا يجعـل المبنى بيئـة شـاملة، لا يهـم فيها مـا إذا كان الشـخص موظفًا أو زائـرًا، شـابًّا أو مسـنًّا، معوقًـا أو حـاملاً مؤقتًـا لإعاقة، أو حتى امرأة في أشهر الحمل الأخيرة.

تصميـم المبانـي بهـذه الطريقة يشـمل كل التفاصيل؛ من السلالم والمصاعد والمنحدرات، إلى دورات المياه والمطابخ، وصولاً إلى الملاعب والمتنزهات والمواقف المجهـزة للمعوقيـن، كمـا يتيح للأشـخاص القدرة على التمتـع بالمساحات الخارجية والداخلية على حد سواء، مما يحوّل المبنى من مجرد مكان للإقامة أو العمل إلى بيئة حيّة وشاملة.

تجربـة هـذا المسـتخدم تذكّرنـا بـأن أي تصميـم معمـاري يجـب أن يدمـج "البعد الإنسـاني"، ويستشـرف الاحتياجـات اليومية والمتنوعة لجميـع فئات المجتمـع، بمـا يجعـل مفهـوم "التصميـم بلا عوائق" قاعـدةً لا غنى عنهـا فـي كل مدينة وكل مبنى، ليس كخيار للرفاهية، بل كحقّ أساسي لكل إنسان.

نحو مدينة بلا أسوار خفية

المدينـة التـي تفكّـر فـي الكفيـف، فـي الأم الحامـل، فـي العجـوز المتكئ على عصاه، ليسـت مدينـة مثالية متخيَّلة، بل مدينة عادلة وواقعية. "التصميم بلا عوائق" ليس رفاهية معماريـة ولا بنـودًا جامـدة فـي كـودٍ هندسـي، بـل إعلانًـا حضاريًّـا يقـول: "الإنسـان أولاً". حين نضـع المنحدر في مدخـل بنايـة، نحن لا نلبي شـرطًا هندسـيًّا، بـل نفتح باب حياة. وحين نصمم رصيفًا آمنًا، نحن لا نرصّف الحجارة فقط، بل نمهد طريق الكرامة. لذا، لا بد من توافر ما يلي:

أ– مرونـة الحركـة: توفيـر ممـرات ومنحـدرات آمنـة للجميـع.

بـ– سـهولة الوصـول: إتاحة المرافـق العامة والخاصة دون تمييز.

جـ– وضـوح التوجيـه: مسـارات وعلامـات بصريـة وسمعية واضحة.

د– الأمـان: تقليـل فرص الحـوادث وحماية ضعاف البصر والمسنين.

هـ– إمكانية الاسـتعمال: تصميـم مداخل، ومصاعد، ودورات مياه تناسب مختلف الفئات.

و– شمولية الحياة اليومية: مدارس، ومساجد، وملاعب، وشواطئ، وحدائق تُرحِّب بالجميع.

قد لا نسـتطيع أن نغيّر مدننا كلها دفعة واحدة، لكن كل خطـوة صغيـرة تصنـع فرقًا كبيـرًا. كل منحدر جديد، وكل مصعـد مهيـأ، وكل دورة ميـاه مجهـزة، وكل مقعـد صديق للجميـع، ليس مجرد تحسين تقني، بل هو رسالة إنسـانية تقـول: "أنـت مرحَّب بك هنا، وهـذا المكان لك كما هو للجميـع".

التصميـم بلا عوائـق ليـس رفاهيـة، بـل ضـرورة تضمن كرامة الإنسـان في الحركة، والاسـتمتاع بالمكان والمشـاركة الكاملـة فـي الحيـاة اليوميـة. هو جسـر يربط بيـن الجسـد والمكان، بيـن الحاجة والفرصـة، بين الفرد والمجتمـع. إنه يمنح كبار السـن حريـة التجول، ويتيح لمصابي الحوادث استعادة استقلاليتهم، ويسمح للنساء فـي أشـهر الحمـل الأخيـرة بـأن يتحركـن بأمـان وراحة، ويمنـح المعوقيـن فرصـة لرؤيـة العالم بعيـون بانورامية، كما حلم أحدهم باعتلاء سطح المبنى.

فلنجعـل مدننـا كمـا قلوبنـا؛ مفتوحـة، رحبـة، بلا حواجز أو أسـوار خفية، حيث تتحول المباني والشوارع إلـى فضـاءات حيّـة تدعم الحياة الكريمة لكل إنسـان بلا اسـتثناء. فـكل خطـوة نخطوهـا اليـوم هي لبنـة في صرح مجتمـع أكثر عدلاً وشمولية، مجتمـع يذوب فيه الحاجز بيـن القـدرة البدنية والفرصة، مجتمـعٍ ترى فيه الإنسـانية نفسها في كل زاوية، وكل شارع، وكل مبنى.

وفـي النهايـة، التصميـم بلا عوائق هو دعـوة للتفكير وللتغييـر وللحركـة نحو عالم أفضـل، عالمٍ تصنعه أيدينا اليـوم حتـى يتمتـع به كل فـرد غدًا، حيـثُ تصبح الحياة رحلـة حقيقيـة كريمـة، ومتاحة لكل إنسـان كما يجب أن تكون. ■

(*) أستاذ ورئيس قسم العمارة بمعهد الطيران / مصر.

hiragate.com

د. داليا فهمي السيد*

التناغم الحركي
لموسيقى الخط العربي

١ الفن والعلم هما ركيزتان أساسيتان لتواصل الإرث الحضاري، وهما الرسالة الأكثر ديمومة في المجتمعات والأقرب إلى القلب، فهما في قلب المتلقي الذي يلهث بمتعة وراء هذا التواصل. فالحرف العربي كعِلْم، لا يمكن أن يعيش من دون موسيقى كفن، إذ يتميز شكل الخط بآفاق جمالية لا حدود لها. فالحروف العربية هي وحدها المتفردة في

امتلاك طاقة هائلة من الحركة والنطق والرقص والتمرد والرشاقة والإيقاع.

عندما نسمع صوتًا جميلاً أو لحنًا لعازف خبير، تصبُّ تلك الأصوات في أعماق الروح باحثة عن أصلها كما تصبُّ الأنهار في البحار العظيمة. وإن الأنّات أو الآهات التي نطلقها بوعي أو من دون وعي، ما هي إلا ظاهرة الروح التي تعاني الغربة والشتات. فالأرواح التي تعاني الهجرة والغربة تجد سلوتها ومتعتها في موسيقى العيون، هذه الموسيقى التي تضعنا في وسط حديقة غنّاء غير ملموسة، يجذبك إليها سحر الحروف ومشهد الكلمات، وما بين الاتكاء والعناق والتآلف والتناغم والانسجام، تسمو الروح في معراج الكلمات، وتصبح الموسيقى ريحانة ما بين سحر الكلمة وعبق الحروف.

تلك هي الموسيقى الصامتة التي تطلقها الحركات الإنسانية في امتشاق قامة الحرف العربي نحو الجمال والكمال والإبداع. كما أن الأرواح التي تأتلف في معايشة جمالية تلك الفنون، تعيش لحظات متفردة بأصالة متجذرة في أعماق الأبجدية التي أخذت على عاتقها بناء الإنسان الذي يفهم كيف يخرج المكنونات الدفينة إلى مسرح الوجود؛ كي تتفاعل مع النخب العطشى لتروي حدائق فوّاحة من العبير المندى بقبسات من الثقافة البصرية المتميزة.

ولأن الخط العربي يتميز بين كثير من الفنون العريقة التي عرفتها حضارات العالم بكونه فنًّا متأكدًا في أصالته التي شبّ عليها ونما منها وتشعبت عنها ضروبه الرائعة، فإنه وإن أدخلت إليه بعض المؤثرات الخارجية والطارئة، فمسته بشيء منها، وبأثر من رحلته التي لم تخلُ من إضافة حرف فهلوي أو حرف أُورْدِي هندستاني أو حروف لغير أمة من الأمم، فإن ذلك لم يخرج به مطلقًا عن مقومات أصالته التي انبثق منها، واستقام له أن يكون فيها حرفًا عربيًّا.

وقد اتسعت له شعوب وأمم وأمصار اعتنقت الدين الإسلامي، فأغنت أشكاله وطوّرت أنماطه، وعزّزت من مناهج الأداء في خطه ورسمه، وذلك من خلال الخاصية الذاتية التي يتميز بها الإنسان المسلم عبر

إن الحروف العربية هي وحدها المتفردة في امتلاك طاقة هائلة من الحركة والنطق والرقص والتمرد والإيقاع والرشاقة، تتخطى إطار الصورة لتعميق المشاركة ما بين طرفي العمل الإبداعي في الفن والمتلقي.

التزامه الصارم بأحكام دينه ومعايشته لها واقعًا حياتيًّا متكاملاً ومتناسقًا، حيث تنتظم علاقاته الاجتماعية، وكل دقائق أمور دنياه وكبائرها.

تسبيحات قلم في معترك الإبداع

من المؤثرات والعوامل التي رأى فيها "مارتن لنكس"، الخبير في المخطوطات العربية، سببًا مهمًّا في ثراء الخط العربي، الإحساس بضرورة التماثل والمواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة. فإذا كانت الأولى روحًا، فلتكن الثانية الجسد الممجّد لجمال الروح، وهو ما نبّه إليه "ياقوت المستعصمي" بقوله: "إن الخط هندسة روحانية بآلة جسمانية".

ويكون للعين ما للأذن من ولَهٍ بها، وتماثل في الإبداع المتبادل بينهما، حتى صار المتعلمون من المسلمين يتفاضلون بجمال خطوطهم وحسن كتاباتهم كما يتفاضلون بعلو مراتبهم في العلوم والفنون والآداب. وكان لمدارس الخط من العناية ما يوشك أن يكون لمثيلها في الأدب واللغة، وكان على الخطاط أن يوسّع من قراءته في الدين والحكمة والأدب والشعر، ليختار من الكلام ما هو حقيق بالإبداع في خطه.

ولا بد من الإشارة عند الحديث عن المؤثرات والعوامل في تطور الخط العربي، إلى أثر الحيز أو المجال الذي مورست فيه الكتابة، والمواد التي استخدمت فيها، وإلى ما كان لهما من وقع إيجابي على مسيرة الخط العربي، بعد أن أصبحت الكلمة المدونة من بعض الأسس الرئيسية في تزيين المساجد وقبابها والقصور والأبواب وألبسة وأساور النساء، وحتى الخدود والقدود والأيدي والسيوف ودروع وخوذ المحاربين، والأواني النحاسية والزجاجية.

hiragate.com

وصار للخط أن يتكيف للحيز المفرد له بشكلية مناسبة، وللمادة المعدة له بما يصلح لها من أسلوب في الأداء، فقد يختزل الكلام نفسه ويتكور بعضه على بعض بأثر من ذلك، وقد تَقْصر أطراف بعض الحروف أو تطول، وقد يندمج حرف بحرف في شكل واحد، أو تتوزع النقاط على الفراغات، وقد يتوزع حرف بين كلمتين، أو يختل رسم الحروف ومقاساتها عبر ابتداع شكليات جديدة لها إيقاعها الجمالي الخاص، الذي لا يكون له مثل هذا الإيقاع لو نُقل إلى حيز آخر أو نُقش على مادة مختلفة.

وقد يتوزع العمل بين شخصين أو أكثر ضمن أداء أسلوبي واحد، ورؤية جمالية منسجمة، وإدراك متوازٍ في استخدام المساحة المسطحة، بما يهَبُ الحرفَ جماليته المنبثقة من حُسن التوافق بين أجزاء العمل كله.

وقد دفع تعدد مجالات استخدام الخط العربي بالخطاط، إلى أن يُرهف من حساسيته التشكيلية وقدرته على الابتكار، وضبط إيقاعات الحروف وتوازنها الأفقي والعمودي، بحيث يكون لحروفه أن تنعقد في دائرة سقفية، أو تستطيل على عمود، أو تتخذ لها شكلاً مخمسًا أو مثمنًا، تتحدد أطرافه بمجموعة من حرف الألف أو اللام، لتصبح بالتالي ضربًا من الزخرفة الإشعاعية القائمة على المزج بين الإشعاعات النابذة والإشعاعات الجاذبة التي تدور حول بؤرة مركزية.

موسيقى الحروف الصارخة الصامتة

إن الحروف العربية هي وحدها المتفردة في امتلاك طاقة هائلة من الحركة والنطق والرقص والتمرد والإيقاع والرشاقة، تتخطى إطار الصورة لتعميق المشاركة ما بين طرفي العمل الإبداعي في الفن والمتلقي.

ولذا يقول "أراجون" في نص مختار عن مجنون ألزا: "لا يبقى على الفنان إلا أن يتنحّى بألوانه أمام الكتابة، تزحف من اليمين إلى اليسار على جباه النوافذ، على تواريق العِماد، حيث يخطّ القلم على البياض حرفًا فاحمًا أسود، شبيهًا بكوكبة فرسان في عُباب الصحراء، وثّاب الرشاقة كسيوف مسلولة، كل حرف حطّ قدمًا في الرمال كأنه انفعالات فهد جسور،

hiragate.com

أو كأنه انزياح جناحٍ أسود فجأة فوق الغبار".

وإذا كانت الكتابة المحفوظة تعتمد على اللغة، فإن للعلامات والإشارات التشكيلية لغةً أخرى ترنو إلى ما وراء الطبيعة، حتى ولو أدرجنا العمل التشكيلي ضمن حقل الدلالات، ذلك لأن الفكر يلهث وراء عقلنة الأشياء ورموزها وألوانها، ويرنو إلى القبض على حقيقتها. ويُلاحَظ ذلك من خلال الكم الهائل من الألوان والتدرجات اللونية التي تُستمدّ من هذا اللون الغني بملايين الطبقات اللونية.

ولعلنا في العصر الحديث، يمكننا أن نستشفّ الصور الرائعة للكلمة المجردة التي تحمل في جنباتها معنى أدبيًّا خاصًّا، دون أن تشغل تلك الكلمة مساحة أساسية في اللوحة، حيث تعمل على مساعدة المتلقي في الدخول إلى عوالم الحروف وتشكيلات الكلمة، في استشفاف الموضوع ومحتواه عن طريق المعنى، وتجسيد ذلك المعنى بعدة طرق، لعل أبرزها اللون والبناء والحركة، كما في أعمال الفنان السوري الدكتور "محمد غنّوم".

فظاهرة اللون في تجربته الرائدة هي بمثابة الدم الذي يتدفق في الجسم عبر الشرايين لتستمر الحياة، فالألوان هي مصدر الحياة الدائم، وهي التي تنشد التناغم الموسيقي لعناصر اللوحة. ذلك أن عملية التفكير في الجماليات العربية، مسألة جوهرية أمام كل من يريد صياغة خطاب على الممارسة التشكيلية.

يقول "غنّوم": "إنه يعطي للحرف ما يتطلبه من مساحات أحيانًا، وأحيانًا أخرى يجمعه مع أترابه، وفي كل الحالات تصدح الموسيقى صاخبةً تارة، وعذبةً هادئة تارة أخرى. فالحرف العربي لا يمكن أن يعيش دون موسيقى، إذ يتميز شكل الخط بآفاق جمالية لا حدود لها".

وقد حمل "غنّوم" تجربته الإبداعية العميقة وذاكرته الفنية وثقافته العربية، وطاف بها إلى دول غربية كثيرة، ليجعل من فنه تراثًا حيًّا يقف به ليتحاور مع حضارة العصر، ولتكون ورقة بحث لصالة مفتوحة في حوار حضاري له خاصية التميز والانفراد.

ورغم أن لحروفنا خصوصية ذاتية بالعرب وحدهم، إلا أنه يقدمها بلغة عالمية لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى ترجمان، لكونها لغة الموسيقى العذبة التي يتميز بها هذا الخط، فيقدمها في عرسٍ لوني قادم من الشرق ليباهج العين وينعش النفس بالعناق، مصطحبًا توهّمات الروح وصفاء السريرة.

يؤكد الناقد التشكيلي "عبد الله أبو راشد" أن لوحات "غنّوم" تتصف بحشد الكلمات والحروف والملوّنات الفاقعة حينًا والهادئة حينًا آخر، والمتجانسة في كثير من الأحيان، حيث إن خاصية التكرار الحرفي أعطت مجالاً أساسيًّا في تأليف الصورة البصرية، فأصبحت الصورة الكلامية لمفردات محددة، هي البؤرة المركزية في توصيف واقع حال اللوحة، لتأخذ مداها الشكلي في جميع الاتجاهات، حيث المجاورة والتقابل والتماثل والانعكاس.

ويبحر "غنّوم" مع الألوان، وخاصة مع اللون الأزرق، لما يحمله من صفاء دلالي لصوفية الذات والاندماج في الفضاء الكوني لمدركات الطبيعة، نحو آلية حركية مشبعة بالحرية والانعتاق.

إن الديناميكية في لوحاته هي في حقيقة الأمر أساس إستراتيجي دائم في مسار العمل الفني، وعليه فإنه يعتقد أن التحولات الثورية في طرح الفنون العالمية المعاصرة لا تأبه كثيرًا بالتصنيفات النقدية مثل الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة والخصخصة، وما إلى ذلك من مسميات مستحدثة. ■

(*) سفيرة بوزارة الخارجية المصرية / مصر.

المراجع

(١) المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٩٩م. القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر للإمام التطيلي (ت ٣٨٦ هـ)، وهو من كتب التراث التي تُعنى بهذا الجانب من الحضارة الإسلامية.

(٢) J. Sauvaget. La Mosquée Omayyade de Médine. Paris, 1947.

(٣) Marc Jeannerod. 2023. La double commande d'une pince de haute précision, La Recherche, No. 309, p. 54. Paris.

(٤) Yann Herault et Denis Duboule. 2022. Comment se construisent les doigts ?, La Recherche, No. 305, p. 40. Paris.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

الفراسة
بين العلم والخرافة

يُعدّ علم الفراسة (Psychognomy) فرعًا من فروع العلوم الطبيعية، التي تسلط الضوء على أخلاقيات الإنسان داخل النفس البشرية، بالاعتماد على تحليل أحواله الظاهرية كاللون أو الشكل مثلاً. كما يُعدّ علمًا أو نظرية نفسية يُعتمد عليها في الاستدلال على الأخلاق الخفية في الإنسان وفقًا للظواهر المرئية. وينفرد هذا النوع من العلوم، باعتماده على مبادئ خاصة تقترن بعلم دراسة الرموز. ويُشار إلى أن العرب قديمًا ربطوا صفة

الفراسة بالذكاء والدهاء، نظرًا لاعتبارها قدرة فردية على استنباط الحقائق المخفية من ظواهرها.

يعود تاريخ علم الفراسة في مجال تحليل الشخصية، إلى اليونانيين؛ فقد كان الفيلسوف اليوناني "فيثاغورس" يستخدمها في مقابلاته لتلاميذه الجدد، ويعتمد على نتائجها في قبولهم في المدرسة، حيث وضع مجموعة من القواعد لقراءة وجوه الأشخاص. وكان لـ"أرسطو" دور مهم في علم الفراسة، إذ ربط صفات الإنسان بمدى تشابه ملامح وجهه مع شكل حيوان معين يتصف بصفاته، كقوة الثور، ومكر الثعلب، وشجاعة الأسد، وغيرها من الصفات الأخرى التي تجمع بين الحيوان والإنسان. ويشار إلى أن هذا النوع من العلم قد انتشر بشكل واسع خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وتُعرَف الفراسة اصطلاحًا بأنها علم تُعرَف به بواطن الأمور من ظواهرها، ويُستدلّ من خلاله على صفات الإنسان الداخلية وتكوينه الخُلُقي، وذلك عن طريق البحث في الظواهر الخارجية. بالتالي يستطيع الفرد الوصول إلى سلوكيات الإنسان ورغباته وردود أفعاله ونظرته للأمور، وكل ما يصدر عنه من تصرفات إيجابية أو سلبية. ويمكن -على سبيل المثال- تحليل شخصية الإنسان ومعرفة صفاته وميزاته، بالإضافة إلى نقاط القوة والضعف لديه، من خلال قراءة ملامح وجهه.

تاريخ علم الفراسة

كان العرب في الجاهلية يعتقدون أمورًا تُعدّ من قبيل الفراسة، كالقِيافة والزِّيافة والعِيافة. وكانت "القيافة" عندهم صناعة يُستدل بها على معرفة أحوال الإنسان، ويُسمّونها قيافة البشر؛ لأن صاحبها ينظر إلى بشرات الناس وجلودهم وما يتبع ذلك من هيئات الأعضاء، -وخصوصًا الأقدام- ويستدل بتلك الأحوال على الأنساب.

أما "الزِّيافة" فهي عبارة عن تعريف الرائف للماء المستجنّ في الأرض، أَقَريب هو أم بعيد، بشمّ رائحة ترابها ورؤية نباتها وحيوانها ومراقبة حركاته. وأما "العِيافة" فهي تتبُّع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الطرق، التي تتشكل بشكل القدم التي تقع عليها، ومن ذلك استدلّوا على المسيرين وأحوالهم.

الفراسة علم تُعرَف به بواطن الأمور من ظواهرها، ويُستدلّ من خلاله على صفات الإنسان الداخلية وتكوينه الخُلُقي، وذلك عن طريق البحث في الظواهر الخارجية.

أما في الإسلام، فقد نقل العلماء علم الفراسة ضمن ما نقلوه عن اليونان والرومان من علوم الطب وغيرها. فألّف فيه بعضهم كتبًا مستقلة، وذكره آخرون في جملة ما كتبوه في علوم الطب، مثل "الرازي" الطبيب؛ فإنه لخّص كتاب "أرسطو" وزاد فيه. وأشار إليه "ابن سينا" في كثير من كتبه، وكذلك "ابن رشد" و"الشافعي" و"ابن العربي" وغيرهم. وكانت كتب هؤلاء وأمثالهم من علماء الإسلام، عمدةً للإفرنج في أجيالهم المظلمة، وعنهم أخذ غيرهم من كتّاب العربية في ذلك الزمن، ولم يصل إلينا منها إلا القليل.

ومن أشهر ما وصل إلينا من كتب العرب في علم الفراسة كتاب "السياسة في علم الفراسة" لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٧٣٧هـ)، وفيه أحكام علم الفراسة منسوبة إلى أصحابها بأحرف يرمز كل حرف إلى اسم القائل، وقد طُبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٨٨٢م.

وعُثر في المكتبة الخديوية بالقاهرة على منظومة خطيّة في علم الفراسة لمحمد غرس الدين بن غرس الدين بن محمد بن خليل، خطيب الحرم النبوي، وعلى كتاب خطي اسمه "البهجة الأنسية في الفراسة الإنسانية" للعارف بالله زين العابدين محمد العمري المرصفي، وعلى "مختصر في علم الفراسة"، وعلى رسالة "في الفراسة والرمل"، وأخرى في "علم الفراسة لأجل السياسة". ذلك كل ما ظفرنا به من الكتب العربية في هذا الموضوع، وكلها مختصرات لا تشفي غليلاً.

الفراسة بين العلم والخرافة

انتشر علم الفراسة في الأجيال المظلمة، ولم يكتفِ

hiragate.com

أصحابه بالاستدلال من الملامح على الأخلاق والقوى، ولكنهم صاروا يتنبّؤون بالغيب، وتوسّعوا بذلك حتى صاروا يستدلّون من خطوط الكفّ وخطوط الجبين وأشكال الأعضاء، على مستقبل الإنسان من سعدٍ أو نحسٍ، وخلطوا بينها وبين النُّجامة والسحر. فأصبحت الفراسة من العلوم الخرافية، وزادت الناس أوهامًا على أوهامهم، وعظُم البلاء في أوروبا حتى أصدر "جورج الثاني" ملك إنجلترا أمرًا بجلد كل من يدّعي هذا العلم أو يتعاطاه، وفعل مثل ذلك غيره من ولاة الأمور ورجال الدين. فقلّت ثقة الناس بعلم الفراسة، وكاد يتلاشى أمره.

ثم عاد هذا العلم فلبس ثوبًا جديدًا على أثر ظهور فجر التمدّن الحديث المؤسّس على العلم الصحيح، إذ أخذ الناس في تمحيص الحقائق، فنظروا في علم الفراسة بعين العلم الطبيعي المبني على المشاهدة والاختبار. فألّف "بِبْتِستا بورتا"، أحد الإيطاليين في أواخر القرن السادس عشر، رسالة في الفراسة الإنسانية، بيّن فيها حقيقة هذا العلم، وفرّق بينه وبين ما أُدخل فيه من الخرافات والأوهام، وهو أول من نبّه الأذهان إلى ذلك. وكتب غيره بعده، ولكنهم لم يُوفوا الموضوع حقّه.

اتقوا فراسة المؤمن

الفراسة ثابتة بالكتاب والسُّنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(الحجر:٧٥)؛ أي المتفرّسين كما قال مجاهد، أو المتفكّرين كما قال قتادة. وللفراسة سببان؛ أحدهما جودة ذهن المتفرّس وحدة قلبه وحسن فطنته، والثاني ظهور العلامات والأدلة على المتفرَّس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين.

ما يهمنا في هذا المقام، هو الفراسة الفطرية في صفائها ونقائها عند أصحابها، الفراسة النابعة من السجايا والطباع التي وهبها الله لبعض عباده، والمرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالإيمان والتقوى والصلاح.

يعتقد العلماء أنَّ حقيقة الفراسة تكمن في أنَّ الله ﷻ يضع في قلب المؤمن نورًا، يُعطيه لمن يشاء من عباده،

hiragate.com

يجعله يُميّز بين الحق والباطل، ويمنحه قدرة على كشف نفاق الأشخاص ممن حوله، فيحيا قلب المؤمن بذلك النور، ولا تخطئ فراسته. قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾(الأنعام:١٢٢)؛ فالآية الكريمة توضِّح أن قلب الإنسان كان ميتًا، ولكن الله أحياه ببثّ النور فيه.

وقد بيَّن بعض العلماء أن الفراسة عبارة عن أفكارٍ تخطر على بال المرء دون وجود ما يُعارضها، فإن تمَّت معارضة هذه الأفكار فهي ليست فراسة، وإنما حديث نفس. وربط بعض العلماء الفراسة بالإيمان، حيث بيَّنوا أن بينهما رابطة قوية، فلا تكون الفراسة إلا نتيجة لوجود الإيمان.

قال أبو الفوارس الكرماني: "من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة".

ذكر ابن القيم -رحمه الله- في "مفتاح دار السعادة"، بعض الآثار الدالة على فراسة الإمام الشافعي، حيث قال: "والشافعي كان من أفرس الناس، وكان قد قرأ كتب الفراسة، وكانت له فيها اليد الطولى؛ فذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم والحاكم وغيرهما عن الحميدي قال: قال الشافعي: خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها".

وهذا عثمان بن عفان ﷺ يحكي عنه أنس بن مالك فيقول: "دخلت على عثمان، وكنتُ رأيت امرأةً في الطريق تأملتُ محاسنها، فقال عثمان ﷺ: يدخل عليَّ أحدُكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه! فقلت: أوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة".

وورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: "إن أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه، والمرأة التي رأت موسى عليه السلام فقالت لأبيها: يا أبتِ استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر ﷺ".

وقد كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ أعظم الأمة الإسلامية فراسة، يتبعه سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ. ووقائع فراسة سيدنا عمر ﷺ مشهورة؛ فإنه ما قال لشيء "أظنه كذا" إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته موافقته ربه في مواضع معروفة، فله عدة رؤى واجتهادات جاء الوحي بها.

وهناك كتاب اسمه: "فتح الوهاب في موافقات سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ"، من تأليف الشيخ العلامة المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسني -رحمه الله- وهو كتاب يحكي ما أُجري على لسان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ من الحق والإلهام، حتى كان موافقًا لقضاء ربنا ﷻ.

صفوة القول

كأن الحديث عن الفراسة ومواقف المتفرسين، حديث عن الخرافة في أبهى صورها، من العسير تصديقه؛ فالقلوب التي تربَّت على المادية وزخم الحياة الحالية، لا تستطيع استساغة مثل هذه الشفافية والروحانية بسهولة ويسر، أما القلوب العامرة بالإيمان فتُصدِّق ذلك، فهو قريب إلى نفسها وإن كانت لم تجرِّبه.

قصص كثيرة.. صفقة تبدو لك وكأنك ستصبح بسببها غنيًّا.. الفراسة قد ترشدك إلى انقباض، وهذا الانقباض سبب حفظ مالك أحيانًا، فيكون مكافأة من الله للمؤمن، هي هذه الفراسة.

إنسان طيب تثق به، وإنسان بريء تحس ببراءته، وآخر مخادع تشعر نحوه بانقباض وتقول: ما اطمأننت له، بالرغم من أن كلامه مقنع، رائع، مؤيَّد بكل الأدلة، ومع ذلك لم ترتح له، هذه هي الفراسة. ■

(*) استشاري طب وجراحة العيون / مصر.

المراجع

(١) علم الفراسة الحديث، جرجي زيدان.
(٢) الخرافة في الحديث عن الفراسة، عماد حسن أبو العينين.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم.
(٤) الفراسة.. الحقيقة والتاريخ، صحيفة الخليج (بتصرف).
(٥) الفراسة، موسوعة النابلسي.

hiragate.com

د. صابر علي عبد الحليم*

دور الأخلاق
في حماية البيئة

إن البيئة ليست كتلة مادية صمّاء لا تسمع ولا ترى، وإنما هي جزء من كيان الإنسان؛ فعندما يستغرق وجدان الإنسان البُعد الأخلاقي، فإنه يحاكي البيئة بكل عناصرها محاكاةَ حب وانسجام، إذ يرى في شعور نفسه أن كل شيء يعمل وفق ما قدَّره الله ﷻ، فينظر إلى الحيوانات والنباتات والجمادات فيراها متوافقة مع بعضها البعض، وينظر إلى البحار والأنهار فيراها كذلك دون تنافر أو تعارض.

وهذه المشاعر الأخلاقية الطيبة توجّهٌ أخلاقي عظيم، تجعل الإنسان

ينظر إلى البيئة بكل موجوداتها نظرةَ احترام ورحمة؛ فينظر إلى الحيوانات فيحافظ على بقائها وتكاثرها، وينظر إلى النبات فيكثر من الزراعة والمساحات الخضراء، وينظر إلى المياه فلا يلوثها، وينظر إلى الهواء فيحافظ على نقائه.. وهو بهذه النظرة ينسجم مع بيئته ببعدٍ أخلاقي عظيم يجعله يحب بيئته كما تحبه. ففي الحديث النبوي الشريف قال ﷺ: "إذا قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسَها فليغرسْها" (رواه البخاري).

إن الربط بين الجانب المادي المعرفي الذي يعتمد على التجربة والمشاهدة، والجانب الأخلاقي الذي يعتمد على الضمير ونقاء الفطرة، له أهمية كبيرة في مواجهة التغيرات المناخية وتحقيق التوازن البيئي. مثلاً، نظرة الإنسان عند تعامله مع أخيه الإنسان، إذا كانت قائمة على المادية المحضة؛ كأن يسأل عن أحواله المادية والتجارية دون أن يلتفت إلى الجانب الأخلاقي، أيْ لا يهتم بكيف يكسب ماله أمن حلال أم من حرام؟ ولا يسأل عن علاقته بربه وبالموجودات حوله وسلوكه معها. فإنه بهذا التصرف يكون قد أخلّ بالجانب الأخلاقي الذي يجعل الإنسان على غير توافق مع بيئته. فإن لم تُضبط حركته وفق منهج الله ﷻ، فإنه يكون قد تصرف تصرفًا خطأً نحو الموارد، فيلوثها أو يتلفها بدافع الأنانية والطمع، مما يؤثر سلبًا على التوازن البيئي.

أما إذا التقى مع أخيه الإنسان لقاءً قائمًا على الأخلاق، فإنه -بلا شك- يمكنه أن يعيش في انسجام وحب مع ما حوله، بعيدًا عن كل ما يعكّر صفو حياته.

إن البعد الأخلاقي للبيئة في الإسلام لم يأخذ اتجاهًا واحدًا، وإنما تتعدد اتجاهاته حتى يحقق الغاية المنشودة من وجود الكائنات الحية على الأرض. ولعل من أهم الأمثلة البارزة في هذا المجال، ما اشتهر به المسلمون في تخصيص أوقاف لأصناف من الحيوانات في سبيل رعايتها وصيانتها على المستويين الفردي والجماعي.

وليس هذا فحسب، فالإسلام نظرته للبيئة نظرة المحب لحبيبه، لا يعرف العدوانية والشرور حتى في أصعب الظروف وأشدها. فقد روي أن أبا بكر

للبعد الأخلاقي أهمية كبيرة في حماية البيئة، فالأخلاق هي الأداة التي تُحرّك الإنسان نحو ما يحقق أمنه وسلامته، لأنها القناعة الإيمانية التي على أساسها يكتمل الإنسان سلوكيًّا، ليصبح منسجمًا مع الكائنات حوله.

الصديق ﷺ بعث جيوشًا إلى بلاد الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان ﷺ، فأوصاه قائلاً: "إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيًّا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تُخرِّبن عامرًا، ولا تَعقِرَنَّ شاةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تَحرِقن نخلاً، ولا تُفَرِّقَنَّه، ولا تَغلُلْ، ولا تَجبُنْ"[1].

ولقد تحدث الجاحظ في شأن الكلب والديك، مما قد يغفل عنه كثير من الناس، فقد خلقهما الله ﷻ واستودع فيهما كثيرًا من الأسرار التي تجعل الإنسان يرفع رأسه؛ ليعلن أن لهذا الكون إلهًا خالقًا، وأنه تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا أو هملاً. فكان حديثه جميلاً حين قال: "لسنا نقف على أثمانهما من الذهب والفضة، ولا على أقدارهما عند الناس، وإنما ننظر فيما وضع الله ﷻ فيهما من الدلالة على عجيب صنعه وتدبيره، وعلى لطيف حكمته، وفيما استخزنهما (استودعهما) من عجائب المعارف، وأودعهما من غوامض الإحساس.. فلم يخلق الخلق سُدى، ولم يترك الصور هملاً، وليعلموا أن الله لم يدع شيئًا غُفلاً"[2].

وكأنه بهذا المعنى يوجّه إلى الغاية التي من أجلها خُلقت هذه الحيوانات، بما تحمله من معان دالة على قدرة الله، وبما تحققه من توازن بيئي يعمل على استقرار الإنسان على الأرض.

إن المشكلة تكمن في حالة الانفصال بين البيئة في مادتها، والمحاكاة الأخلاقية عند التعامل مع مواردها، وهو ما جعل "آل غور" ينقد بشدة ما آلت إليه الحضارة الغربية من أزمات بيئية، فيقول: "إذا ما دمرت المناشير الآلية كل الغابات على ظهر الأرض، وكان الناس الذين يديرونها يسمعون صوت ارتطام

hiragate.com

الأشجار بأرض الغابة العارية، فهل هذا يهم في شيء؟ إن هذا العقل الرشيد، والتقدم العلمي الذي يراقب عالمًا لم يعد جزءًا منه، هو في الغالب عقل يتصف بالعجرفة، وعدم الإحساس واللامبالاة"[٣].

ويقول "توغارينوف" أحد مفكري هذه الفلسفة: "تطبيق المفاهيم الأخلاقية عند التعامل مع البيئة الطبيعية يدعو للشك جدًّا، فقطعُ الغابات وقتل الحيوانات ليسا عملين أخلاقيين، إن مجال العلاقة الأخلاقية أو اللاأخلاقية محصور بالإنسان والمجتمع فقط"[٤].

العلاقة الأخلاقية والجمالية بين الإنسان والبيئة

لقد كان "توغارينوف" محقًّا عندما أوضح هذه العلاقة بين الإنسان وبيئته، وأنه لم يعد يفكر في بيئته -ولو لحظة- وما آلت إليه من تدهور يعاني منه اليوم. فإن لم يعد الإنسان صديقًا لبيئته، فإن الأمر سينتهي إلى الدمار البيئي، وسببه الإنسان الذي يعادي نفسه، بل ويعمل على فناء وجوده على الأرض.

إن التعامل مع البيئة عندما يكون مبنيًّا على الأخلاق، لا بد أن تُجرى دراسات تكشف ما يترتب على القيام بأي نشاط اقتصادي، ومدى أضراره. فإن ترتب على وجوده أضرار تلحق بالتوازن البيئي، فلا بد من أن يراجع الإنسان نفسه، بأن يكون هو ونشاطه جزءًا من البيئة كوحدةٍ عضوية، فما يضر بالبيئة يضر بالإنسان، وما يضر بالإنسان يضر بالبيئة.

ولكي يكتمل التوافق بين الإنسان وبيئته، لا بد من الربط بين المعنى المادي والجمالي والروحي، الذي يعني التعرف على كل ما هو جميل في الكون بشواهد قرآنية تدفع إلى التأمل والتفكر، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(النمل:٦١).

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأنعام:١٤١).

إن الربط بين المعنى الجمالي والأخلاقي قائم على شقين: الشق المادي الذي يُمتع الأنظار، والشق الأخلاقي الذي يدفع بالسلوك الإنساني نحو البيئة في المحافظة على جمالها وبهجتها، في حيواناتها ودوابها وشجرها، أو حتى في جماداتها، في علاقة قائمة على المشاعر والأحاسيس الفياضة بالحب والتوادد.

ألم يقل الرسول الكريم ﷺ عن جبل أُحد: "وهذا أُحُدٌ، جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه". (رواه البخاري)

عندما يجتمع البعد الجمالي مع البعد الأخلاقي،

hiragate.com

يكون هناك توافقٌ بين الإنسان وبيئته يجعله يفكر في نوع العلاقة بينهما: هل هي علاقة قائمة على الود والمحبة، أم على العداء والتنافر؟

إن التوافق المعرفي والجمالي بين الإنسان وبيئته بلغ في الإسلام ذروته. وإن الانفصال بين الإنسان وبيئته له آثاره الوخيمة في الحاضر والمستقبل، فبدلاً من أن يكون صديقًا لها أصبح يعتدي عليها، ووبال هذا التعدي يعود عليه بالضرر.

فالتعدي على البيئة جاء من ناحيتين: الأولى أنه تسلّط على الموارد بالقطع المفرط للغابات، وتحويلها إلى كتلٍ خرسانية، مما جعل اتصال أشعة الشمس بالأرض يزيد من سخونتها. والناحية الأخرى أنه أسرف في استعمال الطاقة الأحفورية (النفط، والفحم، والغاز الطبيعي)، التي تدفع إلى الهواء الحرارة، مما يؤثر على المناخ ويُحدث تغيّراتٍ مناخية لا يزال العالم يشتكي منها، تتمثل في زيادة انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون الملوث للبيئة، ومع الاحتباس الحراري الذي أضرّ بكثير من مناطق العالم، خاصة فيما يتعلق بالأمن الغذائي.

إن البيئة بكل مكوناتها وعناصرها مُلكٌ لله ﷻ، فهو خالقا، والإنسان مستخلفٌ فيها استخلافًا يجعله يحافظ على مواردها بشكل يحفظ للأجيال القادمة حقهم في الحياة على كوكب الأرض.

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ "كريسي موريسون" في كتابه "العلم يدعو للإيمان": "الحياة شديدة الخصب في توالدها، حيث إنها تعول نفسها وتطعم من فائضها، وتضبط جميع الكائنات؛ لتمنع أي مخلوق من أن يطغى على العالم. فالجراد -مثلاً- لو بقي دون ضابط، لاستطاع في بضع سنين أن يلتهم كل زرع أخضر، وعندئذ تنتهي حياة كل حيوان فوق الأرض"[٥].

إن البيئة تحفظ توازنها بنفسها، فهي ليست في حاجة إلى من يعيد لها توازنها، شرط أن يتركها الإنسان وحالها كما خلقها الله ﷻ.

ويبحث علماء البيئة اليوم عن الأخطار التي تنجم عن تحطيم الغابة الأمازونية التي تُعدّ من أكثر الغابات كمالاً، كما أنها تمثل نظامًا بيئيًّا متكاملاً. وإن لتدهورها انعكاساتٍ خطيرةً لا تقتصر على البرازيل فقط، بل ستتعداها لتشمل الكرة الأرضية كلها بسبب التغيرات المناخية على المستوى العالمي، نظرًا لما لهذه الغابة من تأثير في درجة حرارة الجو ورطوبته، وفي الاحتفاظ بمياه الأمطار، والمحافظة على نسبة الأوكسجين وغاز ثاني أكسيد الكربون في الجو.

إن البعد الأخلاقي يمثل أهمية كبيرة في حماية البيئة من أي أضرار تلحق بها، فالأخلاق هي الأداة التي تُحرّك الإنسان نحو كل ما يحقق أمنه وسلامته، لأنها القناعة الإيمانية التي على أساسها يكتمل الإنسان سلوكيًّا، ليصبح منسجمًا مع الكائنات حوله، لأنه فهم الغاية من وجوده ووجود الكائنات حوله.

إن الأخلاق سلوك يتدرج من الإسلام قولاً إلى الإيمان عملاً وتنفيذًا، ثم يتدرج ليأخذ أعلى درجات الكمال والجمال البشري سلوكًا ومراقبة، وذلك بمقام الإحسان الذي عرّفه الرسول ﷺ عندما سأله سيدنا جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: "أن تَعبُد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". (رواه البخاري)

ومقام الإحسان يجعل المسلم يراقب الله في السر كما يراقبه في العلن، ويتقي مخالفة أوامره في الخفاء كما يتقيها في الجهر.

ولا عاصم للبيئة مما يُحاك بها من أضرار إلا بالقناعة الإيمانية التي تُقوّم ما اعوجّ من سلوك، وما فسد من أخلاق. ■

---

[٥] إمام وخطيب ومدرس بالأوقاف المصرية / مصر.

الهوامش

[١] الموطأ، للإمام مالك بن أنس ﷺ، ص:٤٤٧.

[٢] الحيوان، الجاحظ، ج:١-٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص:٣٠٩.

[٣] قضايا البيئة من منظور إسلامي، عبد المجيد عمر النجار، ص:٢٠٣.

[٤] الطبيعة الحضارة الإنسان، توغارينوف، ص:٤٤.

[٥] العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ترجمة: محمود صالح الفلكي، مكتبة مؤمن قريش، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار وحي القلم، ص:٥٦.

hiragate.com

د. خالد صلاح حنفي محمود*

التربية
بين الأنسنة والرقمنة

لم يسبق في تاريخ البشرية أن شهد التعليم تحوّلاً متسارعًا وشاملاً كالذي نعيشه اليوم. ففي أقل من عقدين، تحوّلت الفصول من فضاءات حضورية قائمة على التفاعل البشري، إلى بيئات رقمية افتراضية تتوسطها الشاشات، وتُديرها خوارزميات الذكاء الاصطناعي، ويُسيّجها جدول زمني محكم يقاس بالدقائق والثواني. وقد أظهر تقرير صادر عن منظمة اليونسكو عام ٢٠٢٤م، أن أكثر من ٧٠٪ من الدول أدخلت منصات رقمية إلزامية في التعليم العام، وأن نسبة استخدام التكنولوجيا في التدريس ارتفعت بنسبة

٣٠٠٪ منذ عام ٢٠٢٠م. غير أن هذا التسارع التقني لم يُواكَب بقفزة مماثلة في تطوير البعد الإنساني للتربية.

في هذا السياق، لم تعد الأنسنة مجرد مطلب أخلاقي أو تجميل أيديولوجي للخطاب التربوي، بل صارت ضرورة حضارية مُلحّة. فكلما تقدّمت التكنولوجيا، وتعقّدت الآلات، وازدادت سرعة المعالجة، تضاءل التفاعل البشري، وتراجعت المهارات العاطفية، وانكمش الفضاء المتاح للتعاطف والتأمل والتفكير الأخلاقي. وقد أظهر تقرير لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية أن نحو ٦١٥ مليون طفل حول العالم -رغم التحاقهم بالمدارس- لا يمتلكون المهارات الأساسية في القراءة والكتابة. لكن الأعمق من ذلك أن نسبة كبيرة منهم تُعاني من نقص حاد في المهارات الاجتماعية والعاطفية مثل التعاطف، وضبط النفس، والقدرة على حل النزاعات.. وهي مهارات تُعدّ اليوم من الركائز الأساسية للنجاح الشخصي والمجتمعي.

لكن الحاجة إلى الأنسنة لا تنبع فقط من تحوّلات التعليم، بل من طبيعة العالم الراهن نفسه، الذي يعيش تصدعات وجودية عميقة؛ يُمزّقه التوتر بين التقدم المادي والانحطاط الأخلاقي، بين الاتصال الرقمي والانفصال البشري، بين الثروة المعرفية وفقر القيم. وفي عالم تُهدّد فيه الحروب استقرارَ المجتمعات، ويُهدّد فيه التغيّر المناخي كيانَ الكوكب، وتُهدّد فيه وسائل التواصل الاجتماعي الصحة النفسية للشباب، تصير التربية الإنسانية خطَّ دفاع أول ضد الانهيار الحضاري. فكيف نُربّي أجيالاً قادرة على بناء السلام، بينما تُدرّبهم مناهجهم على المنافسة المفرطة؟ وكيف نُشكّل مواطنين عالميين، بينما تُنمّي وسائل الإعلام لديهم الكراهية والتمييز؟

وقد أظهرت دراسة حديثة نُشرت في مجلة طبية دولية، أن أكثر من نصف المراهقين في عيّنة شملت عدّة دول يُعانون مما يُعرف بـEco-Anxiety، أي القلق الوجودي الناتج عن تدهور البيئة، حيث يشعر هؤلاء الشباب بالعجز أمام كارثة مناخية لا يملكون أدوات

التربية التي لا تُؤنسن، تُنتِج كائنات فاقدة للهوية، مُفكّكة القيم، مُتخيّلة للانتماء، أما التربية الإنسانية فهي تُعيد للإنسان كرامته، وتُعيد للمجتمع تماسكه، وتُعيد للحضارة إنسانيتها.

التأثير فيها. وهذه الظاهرة لا تُعدّ مجرد اضطراب نفسي، بل هي استجابة أخلاقية لانعدام العدالة البيئية. وهنا تبرز الأنسنة كأداة تربوية لإعادة إعطاء الفرد شعورًا بالقدرة على التأثير، من خلال تعليمه أن يكون مسؤولاً لا ضحية.

كما أن الهوية الرقمية صارت تُشكّل بُعدًا وجوديًّا جديدًا في حياة الإنسان، إذ لا يعيش الفرد اليوم فقط في الفضاء المادي، بل في فضاء افتراضي دائم التوالد، حيث تُصنّفه الخوارزميات، وتُشخّصه البيانات، وتُحوّله إلى "ملف سلوكي". وفي هذا الفضاء، تُختزل الإنسانية في تفاعلات رقمية، وتُستبدل العلاقات الحقيقية بالإعجابات والتعليقات. وقد وُثّق في تقرير لمنظمة الصحة العالمية أن ما يقارب ٤٠٪ من المراهقين يُعانون من اضطرابات في الهوية، بسبب التعرّض المفرط للصور المثالية على وسائل التواصل، مما يُولّد شعورًا بالدونية وفقدان الثقة بالنفس. وهذه الظاهرة تُظهر أن التربية لم تعد مهمة تربوية فحسب، بل عملية إنقاذ وجودي، تهدف إلى استعادة شعور الإنسان بذاته، وبقيمته وباستقلاليته.

والأنسنة في هذا السياق، ليست مجرد محاولة للحفاظ على "اللمسة الإنسانية" في التعليم، بل هي مشروع مقاومة تربوية ضد التفكيك الممنهج للإنسان. فهي تُقاوم التجزئة بين العقل والقلب، بين المعرفة والأخلاق، بين الفرد والمجتمع. وهي تُذكّر بأن الإنسان ليس كائنًا قابلاً للبرمجة، بل كائن مُبدع، مُتأمل، مُتعاطف، قادر على الحب، والتسامح، والابتكار الأخلاقي.

ومن الناحية الفلسفية، تُعيد الأنسنة طرح السؤال

hiragate.com

الكانطي الأصيل: "ما هو الإنسان؟" لكن في سياق تربوي معاصر يُهدّد فيه التقدّم التقني بإعادة تعريف الكائن البشري ككائن وظيفي. فكما رفض "كانط" معاملة الإنسان كوسيلة، ورآه غاية في ذاته، فإن التربية الإنسانية ترفض أن تُعامل الطالب كمجرد رقم في سجل، أو ككائن يجب تكييفه مع متطلبات سوق العمل، بل تُعامله كفاعل أخلاقي، قادر على الاختيار والمسؤولية والتغيير.

وهذا الموقف يُناقض النموذج النيوليبرالي السائد في كثير من السياسات التعليمية، الذي يُحوّل الطالب إلى "رأس مال بشري" يجب استثماره لتحقيق النمو الاقتصادي. وقد سجّلت دراسة لمؤسسة بروكنجز، أن ٧٠٪ من سياسات التعليم في الدول النامية تُركّز على "الملاءمة مع احتياجات السوق"، بينما لا تتجاوز نسبة السياسات التي تُولي اهتمامًا صريحًا بالتنمية الأخلاقية والروحية، ١٢٪ فقط.

الأنسنة في التربية بين الفكرة والتحدي

تُظهر عدة دراسات، أن النظام التعليمي غالبًا ما يُوظَّف كأداة للتأقلم مع الوضع القائم، لا لتحدّيه. وهنا تكمن أهمية الأنسنة؛ فهي لا تُربّي على التسليم، بل على التساؤل، ولا تُربّي على الطاعة، بل على التفكير النقدي. وقد أشارت أبحاث مركز دراسات التربية والنقد الاجتماعي في باريس، إلى أن المدارس التي تُطبِّق مناهج قائمة على الحفظ والتلقين، وتُقصي الحوار والمساءلة، تُسهم -ولو بشكل غير مباشر- في ترسيخ سلطات القبول والانقياد، وهو ما يُوصَف بـ"التربية الآلية".

أما من منظور "ميشيل فوكو"، فإن الأنسنة تُشكِّل تمرّدًا ضد "الرقابة التربوية" التي تُنتِج الأفراد وفق نماذج موحَّدة، وتُهمِّش من يخرج عن الإطار. فالتربية الإنسانية في هذا السياق، تُعيد الاحترام للتنوع، وتراه مصدر ثراء.

ولا يمكن الحديث عن الأنسنة في العصر الرقمي، دون التوقّف عند التحديات الهيكلية التي تُهدّد تحقيقها؛ فأول هذه التحديات الهيمنة التقنية، التي حوَّلت الفصل الدراسي إلى فضاء رقمي تغيب فيه النظرة والابتسامة

hiragate.com

ولهفة السؤال. وقد أظهرت دراسة أجرتها منظمة الصحة العالمية بالتعاون مع اليونيسف، أن متوسط الوقت الذي يقضيه المراهق في تفاعل بشري مباشر مع معلّمه لا يتجاوز ١٢ دقيقة يوميًّا، بينما يقضي أكثر من ست ساعات وثلاثٍ وعشرين دقيقة أمام الشاشات، وفق بيانات معهد بيو للأبحاث. وقد ارتبط هذا الانفصال بالارتفاع المقلق في حالات القلق والاكتئاب بين الفئة العمرية ١٢–١٨ عامًا، حيث سجَّلت منظمة الصحة العالمية ارتفاعًا بنسبة ٥٢٪ في اضطرابات الصحة النفسية بين المراهقين خلال العقد الماضي.

أما التحدي الثاني هو الانفصال بين المدرسة والمجتمع؛ فالمناهج -في كثير من الأحيان- تُدرّس مفاهيم عالمية مجردة، لكنها تفشل في ربطها بالواقع المحلي، بالهوية، وبالقيم السائدة. وقد أظهر تقرير للبنك الدولي أن نسبة الطلاب العرب الذين يرون أن المناهج لا تعكس ثقافتهم أو قيمهم، تصل إلى ٦٨٪، مما يولّد شعورًا بالاغتراب.

أما التحدي الثالث فهو الضغط الأكاديمي المفرط، الذي حوَّل الطالب إلى "مُنتَج" يجب أن يُحقّق أقصى عائد من المعرفة في أقصر وقت ممكن.

ولتجاوز هذه التحديات، لا بد من بناء نموذج تربوي أنسني متكامل، يقوم على إعادة تعريف نجاح الطالب، بحيث لا يُقاس فقط بالدرجات، بل بالاستعداد للعطاء، والقدرة على التعاطف، ومستوى المشاركة المجتمعية. وقد أظهرت دراسة لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، أن الطلاب الذين يتلقّون تعليمًا مركّزًا على المهارات الاجتماعية والعاطفية يُسجّلون تحسّنًا بنسبة ١٣٪ في الأداء الأكاديمي، وتقلّ لديهم السلوكيات السلبية بنسبة ٢٧٪.

ولا يمكن تجاهل ضرورة دمج القيم الإنسانية في جميع المواد، لا كمقرر منفصل، بل كإطار مفاهيمي يُستخدم في تدريس التاريخ والعلوم والرياضيات. كما أن التعليم القائم على المشاريع الخدمية، وسيلة فعّالة لربط المدرسة بالواقع، حيث يُشارك الطلاب في حلّ مشكلات مجتمعية حقيقية، مما يُشعرهم بالانتماء والقدرة على التأثير. وقد أظهر تقييم لبرنامج "التعلّم من أجل السلام" المشترك بين اليونيسف ومفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، أن ٨٣٪ من الطلاب المشاركين في مشاريع تطوعية تحسَّن لديهم الشعور بالمسؤولية، وانخفضت حالات التنمر المدرسي بنسبة ٤٤٪.

إن الأنسنة في التربية ليست ترفًا فكريًّا، بل إستراتيجية حضارية للبقاء؛ ففي عالم يُهدّد فيه الذكاء الاصطناعي بتجاوز الإنسان، تصبح القيم الإنسانية هي الميزة التنافسية الوحيدة للبشر. فالإنسان لا يتفوق على الآلة بسرعته في الحساب، بل بقدرته على الشعور، والحب، والتسامح، والابتكار الأخلاقي. ومن هنا، فإن بناء الإنسان المتكامل -الذي يجمع بين العلم والروح، وبين العقل والقلب- ليس رفاهية تربوية، بل ضرورة وجودية.

فالتربية التي لا تُؤنسن تُنتِج كائنات فاقدة للهوية، مُفكَّكة القيم، مُتخيّلة للانتماء. أما التربية الإنسانية فهي تُعيد للإنسان كرامته، وتُعيد للمجتمع تماسكه، وتُعيد للحضارة إنسانيتها.

في النهاية، لا يمكن أن نبني مدنًا ثم نُهمل بناء الإنسان الذي يسكنها. فالحضارة الحقيقية لا تُقاس بارتفاع الأبراج، بل بعمق القلوب، ونقاء النوايا، واتساع الأفق. والتربية -في هذا المعنى الأسمى- ليست نقل معرفة، بل إشعال روح. ■

(*) كلية التربية، جامعة الإسكندرية / مصر.

المراجع

(1) UNESCO, (2024), Global Education Monitoring Report: Technology in Education – A Tool on Whose Terms? Paris: UNESCO Publishing.

(2) OECD, (2023), Social and Emotional Skills: Well-being, Connectedness and Success. Paris: OECD Publishing.

(3) World Bank, (2023), Learning to Live Together: Curriculum and Identity in the Middle East and North Africa. Washington, D.C.: World Bank Publications.

hiragate.com

محمود مصطفى حلمي*

هل الانتظار زمن ضائع؟

في هذا العصر الذي تتقاطر فيه الإشعارات لحظيًّا، وتُقاس فيه الكفاءة بسرعة الاستجابة، ويُصبح فيه "الآن" هو سيد الموقف -واللحظة الراهنة هي أقصى ما يمكن للمرء أن يتطلع إليه بشغف- قد تبدو حالة "الانتظار" وكأنها بقية من زمن ماض، أو تبدو عقوبة يفرضها الواقع، أو مجرد فضاء فارغ من الزمن لا يرجى منه خير.

لكن الانتظار، في حقيقته الإنسانية العميقة، ليس غيابًا للحركة أو توقفًا للحياة، بل هو فصل ضروري من رواية الوجود، وحالة مركّبة تُسكب فيها المشاعر والأفكار بغير ترتيب، وتتداخل فيها الخيوط الرفيعة للأمل والقلق والصبر في نسيج بالغ التعقيد.

نحن بالفعل ننتظر طوال حياتنا؛ ننتظر حدثًا مهمًّا على وشك الوقوع، كموعدِ سفرٍ طال ترقبه، أو نتيجةٍ دراسية تُبنى عليها آمال، أو فرصة عمل قد تُغيّر مسارًا.. ننتظر شخصًا عزيزًا غاب وطالت غربته، أو زائرًا يحمل معه أنسًا نشتاق إليه.. ننتظر المستقبل بجملته وتفاصيله وآماله، ونترقّب ما يحمله لنا من مفاجآت وأقدار لم تُكشف بعد.

وفي كل صورة من صور الانتظار هذه، تتجمع بداخلنا مشاعرُ متضاربة؛ يُشرق الأملُ كشمس تُبدّد غيوم

القلق، وتندسّ الهواجسُ الخفية لتُلقي بظلالها على صفو النفس، ويقف الصبر كجسر وحيد يُمكّننا من عبور هذه المرحلة دون أن تبتلعنا أمواجُ الحيرة والترقب.

غالبًا ما ننظر إلى فترة الانتظار كزمنٍ "ضائع"، أو فراغ بين نقطتين؛ نقطة البداية ونقطة الوصول المأمولة. نظن أن تلك اللحظات زمنٌ مُعطّل لا يُنتج شيئًا، لا يُضيف جديدًا سوى مرور الدقائق والساعات ببطء يُثقل كواهلنا. لكن هذه النظرة قاصرة؛ فالانتظار ليس فراغًا عدميًّا، بل هو مساحة خصبة تتيح لنا ما لا تتيحه أوقات الانغماس الكامل في الفعل والسعي الدؤوب.

في الانتظار يُمكن للعقل أن يتأملَ دون ضغط مباشر، وللروح أن تلتقطَ أنفاسها بعيدًا عن زخم الإنجاز، وللأفكار أن تختمرَ على مهل لتَنضجَ وتظهرَ جليّة.

كم من قرار حكيم لم يُتخذ إلا بعد فترة من الانتظار سمحت بإعادة النظر وتقييم الأمور من زوايا مختلفة! وكم من إلهام فني أو علمي لم يولد إلا في لحظات ترقّب وهدوء ظاهري!

الانتظار يفرض علينا نوعًا من التباطؤ الإجباري في عالم يدفعنا نحو السرعة القصوى. وفي هذا التباطؤ تكمن الفرصة لإعادة الاتصال بذواتنا الداخلية، ولقراءة كتاب كنا نؤجّل قراءته، ولملاحظة تفاصيل صغيرة في محيطنا كنا نغفل عنها، ولبناء قدراتنا الداخلية وتعزيز صبرنا وتحملنا.. إنه وقتٌ للاستعداد غير المباشر، وللبناء النفسي والروحي الذي قد يكون أهم من البناء المادي الظاهر.

لقد أولت الثقافات المختلفة والفلسفات الإنسانية معنى عميقًا للانتظار؛ فهو في بعضها مرتبطٌ بمفاهيم الصبر والتسليم والمشيئة، كجزء من حكمة تتجاوز فهم الإنسان القاصر، وفي أخرى هو محكومٌ بآليات القدر والضرورة التاريخية.

وفي الأدب، تجسّد الانتظار في شخصيات محورية باتت أيقونات لهذه الحالة الإنسانية، من شخصيات التراجيديات الإغريقية التي تنتظر مصيرًا محتومًا، إلى شخصيات روايات الحداثة وما بعدها التي تنتظر معنًى قد لا يأتي أبدًا، كما في مسرحية في انتظار جودو.

كل هذه التجارب الأدبية والفلسفية تشير إلى أن

إن الانتظار ليس مجرد زمنٍ ضائع، بل هو جزء أصيل من التجربة الإنسانية، يحمل في طياته دراما عميقة، وتأثيرًا بالغًا في تشكيل شخصياتنا ونظرتنا إلى الوجود.

الانتظار ليس مجرد زمنٍ ضائع، بل هو جزء أصيل من التجربة الإنسانية، يحمل في طياته دراما عميقة، وتأثيرًا بالغًا في تشكيل شخصياتنا ونظرتنا إلى الوجود.

في زمنٍ يدعونا إلى ملء كل لحظة بالعمل والإنتاجية المباشرة، ويُعلي من قيمة الإنجاز السريع المرئي، قد يصبح الانتظار تحديًا حقيقيًّا لقدرتنا على الصبر والإيمان بقيمة الأشياء غير الملموسة وغير الفورية. وعندها نصبح أقل تحمّلاً للتوقف، وأكثر عصبية في مواجهة التأخير، وأقل قدرة على رؤية الجانب الإيجابي في فترة تبدو وكأنها خالية من أي فعل.

لكن إتقان فن الانتظار يعني إتقان فن الحياة نفسها في أحد وجوهها الأكثر تعقيدًا.. يعني القدرة على التنفس بعمق في خضم الترقب على رؤية الجمال في عملية النضج البطيء، على الإيمان بأن لكل شيء وقته المناسب، وأن أكثر الثمار جمالاً ونضجًا لا تُجنَى إلا بعد طول انتظار وسُقيا ورعاية.. إنه يعني تحويل الفترة التي تبدو كفراغ إلى مساحة للتأمل، للبناء الداخلي، للاستعداد للقادم المجهول بيقظة وهدوء.

فهل ما زلنا نعرف كيف ننتظر حقًّا في عالم يُسرع فيه كل شيء من حولنا؟ هل ما زالت للانتظار قيمته الروحية والفكرية في حياتنا؟

لعل الإجابة تكمن في قدرتنا على احتضان لحظات التوقف، على رؤية ما وراء السكون الظاهر، وعلى اكتشاف المعنى العميق الذي يُخبئه لنا زمن الترقب الهادئ.

ففي معنى الانتظار، تتكشف حكمة قديمة تُعلّمنا أن الحياة ليست فقط في سرعة الوصول، بل أيضًا في ثراء الرحلة التي نقطعها ونحن ننتظر، حتى لو بدا لنا أننا لا نتحرك. ■

(*) كاتب وأديب مصري.

hiragate.com

فتح الله كولن

المنهل العذب المورود

إن الإسلام حين يخاطبُ سامعيه، يراعي جميعَ مشاعرهم الظاهرة والباطنة، وكلَّ أعماقهم من أمثال الفكر والحس والشعور والمنطق والإدراك.

إنه ينظر إلى الإنسان كلًّا جامعًا بلطائفه وأحاسيسه ويكلّمه ضمن هذا الإطار، فيلبّي ميوله، ويقضي حاجاته الفطرية والبشرية، ويهيّئ له البيئة الصالحة لانطلاقه بيسر في كل زمان وفي كل مكان.

ومن السمات المميَّزة لمنظومة الفكر الإسلامي، ارتكازُها أساسًا على مرجعية الكتاب والسنة، دون غيرهما من مصادر العلم والمعرفة. وبهذا الاعتبار ينفرد الإسلام عن سائر النظم الدينية والمذاهب الفلسفية جميعًا. فمنذ بزوغه، حرص على إحداث مسافة فاصلة بينه وبين التراث القديم والتنظيمات المتعدّدة التي تظهر بصورة الدين، سعيًا إلى الحفاظ على كيانه وذاتيته.. ومع ما أبداه من توقير لما لم يطرأ عليه تحريف أو تبديل، وأطلق عليه اسم "شَرْع مَنْ قَبْلَنا"، ظلّ في جوهره مستقيًا من منابعه الأصيلة التي نعدّها "المَنْهل العَذْب المَورُود".

والحق إن الإسلام لم يكن -في أية حال- بحاجة إلى الميراث القديم

أو الأحلام والفانتازيات الجديدة. وكيف يحتاج إليها وكان سنده القرآن؟ القرآنُ "المتضمِّنُ -إجمالاً- كلَّ الكتب التي جاء بها الأنبياء في مختلف العصور، وكلَّ رسائل الأولياء بأنواع مشاربهم، وكل آثار الأصفياء بمسالكهم المتشعبة.. اللامعُ من كل جهاتِه، من فوقه وتحته، وأمامه ووراءه، ويمينه وشماله.. المنغلقُ تجاه كل الأوهام والشبهات.. كتابٌ نقطةُ استنادِه الوحيُ السماوي والكلامُ الأزلي باليقين.. وهدفه وغايته السعادة الأبدية بالمشاهدة.. وباطنه صريحُ الهداية الخالصة.. وأعلاه أنوار الإيمان.. وأسفله الدليل والبرهان، بعلم اليقين.. ويمينه تسليم القلب والوجدان، بالتجربة.. وشماله تسخير العقل والإذعان، بعين اليقين.. وثمرته رحمة الرحمن ودار الجنان"[1]. ولذلك لم يرَ الإسلامُ المستمدّ غذاءه من هذا الكتاب حاجةً قطّ إلى تصوّرات المثاليين، ولا إلى محصلاتِ منطق الواقعيين، ولا إلى مناهج التجريبيين وأصولهم أو غيرهم، فلم يَرجع إليها، ولم يتخذها يومًا مصادر يُعوَّل عليها أو يُوثق بها.

يتميّز الإسلام عن جميع النُّظُم السماوية وغير السماوية بأسلوبه المتفرّد ومناهجه الخاصة، وبما طرحه وقدّمه من حلول للمعضلات البشرية. وهو من كل وجهٍ أنموذجٌ لـ"الكمال" بحقّ. إنه يضع الإنسان ضمن أفق رحب، مستحضرًا خصائصه الجوهرية كاملة، وملَكاتِه العقلية والفكرية والروحية مجتمعة، ثم يمدّه بطاقات متعددة؛ فلا يحصر توجّهه في دائرة العقل والفكر وحدهما، ولا ينظر إليه بوصفه كيانًا ذهنيًّا ومنطقيًّا محضًا، ولا يهمل مشاعره، ولا يتغافل عن آليات وجدانه كما تفعل بعض المدارس الفلسفية.. بل ينظر الإسلام إلى الإنسان من منظور الخالق سبحانه، فيضعه في قالب متين بوحدته الكاملة التي لا تحتمل التفكيك ولا الانقسام، ويُلبّي متطلبات مشاعره الباطنة والظاهرة، ويُهيّئه بجميع مقوّمات وجوده المادية والمعنوية، ليغدو مستعدًا للسعادة في الدنيا والآخرة، وجديرًا بدخول الجنة. أمّا تفصيل هذه المعاني وتحقيقها من أولها إلى آخرها، فنتركه للأقلام المتخصّصة للإسهاب فيها تمحيصًا وتحرّيًا. ■

(*) من كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، محمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١١، ص:١٦٣. العنوان من تصرف الحرر.

الهامش

(١) من "الكلمات" (الكلمة الخامسة والعشرون)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص:٤١٩، دار النيل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨ القاهرة. بتصرف يسير.

أ.د. ناصر أحمد سنه*

هداية المخلوقات
لقوانين الفيزياء

تتبع زهرة دوّار الشمس حركة الشمس خلال اليوم، وهو ما يُعرف بـ"الانتحاء الشمسي"، ويختلف عن "الانتحاء الضوئي" الذي تتحرك فيه النباتات نحو مصدر ضوء ثابت، مما يؤدي إلى زيادة درجة حرارة الزهور وزيادة نمو النباتات الصغيرة، وجعلها أكثر جاذبية للحشرات الملقِّحة التي تقضي معها وقتًا أطول من غيرها.

ونرى أيضًا أشجار الغابات الشمالية تنمو مستقيمة نحو الأعلى رغم عدم تعامد أشعة الشمس أبدًا، كما أن أول جزء من الساق يخرج من تربة لا تنفذ الشمس إليها. وتغلق نبتة ميموزا بوديكا (النبتة الخجولة أو لا تلمسني) أوراقها في الظلام أيضًا، وعندما تشرق الشمس تبدأ بالتفتح، وحين تُلمس في ذلك الوقت لا تغلق أوراقها، ربما بسبب حاجتها إلى ضوء الشمس. كما نراها تتفاعل فيزيائيًا، فتتحرك وتنكمش وترتخي باللمس والحرارة والنفخ

والاهتزاز، ثم تعود إلى حالتها الطبيعية بعد دقائق.

الجاذبية أم الضوء أم ماذا؟

تلعب الجاذبية دورها، لكن كيف تشعر النباتات بها وتستجيب لها؟

أولاً: عندما تنجذب سوائل خلايا النبات نحو الأسفل بسبب الجاذبية، قد يكون الضغط على جدران الخلايا إشارة إلى أن تتجه الخلايا الجديدة من أسفل إلى أعلى.

ثانيًا: تحتوي خلايا النباتات على حبيبات نشوية -كالبروتوبلازم أو سوائل الخلايا- تتحرك إلى أسفل في وجود الجاذبية. كما تُنتج النباتات مواد تتحكم في نموها استجابةً للمُثيرات، وتسمّى "منظِّمات النمو النباتية" أو "هرمونات النبات". ومن أمثلتها هرمون "الأوكسين"، ويُنتج في الغلاف الورقي للنباتات المحيط بطرف الساق، ويمكن إنتاج الأوكسينات في أطراف جذور النباتات، حيث يمكن أن يحفِّز وجود "الأوكسين" استطالة الخلايا أو يُثبِّطها، بناءً على الموضع الذي يؤثر فيه في النبات ومقدار تركيزه.

الفيزياء في عالم الحيوان

أنجزت إحدى الطالبات أطروحة ماجستير تحت إشراف كاتب هذه السطور، بعنوان "دراسات على كسور الرأس في الكلاب والقطط". ومن بين نتائجها العامة، أن السقوط من علٍ -مع الجاذبية- لا يُحدث -مقارنة بأسباب أخرى- نسبةً كبيرة من كسور الرأس والفك السفلي في القطط.

تحب القطط التعرُّض للشمس عبر الوقوف على حواف النوافذ وشرفات الأدوار العليا، وفجأة -لسبب من الأسباب كالضوضاء أو فقدان التوازن- تسقط، وتدور حول محور جسدها عدة دورات لتهبط على أقدامها. وهذه البراعة الجمبازية أو البهلوانية، تثير تساؤلاً حول كيفية قيامها بذلك؟

ولمزيد من الإيضاح؛ لنفترض أنك تحمل قطة وترفع بطنها لأعلى، وتسقطها من علٍ على وسادة مرنة، فإذا كانت القطة مجرد "نظام ميكانيكي مغلق" يخضع لقوانين "نيوتن" الخاصة بحركة المادة، فيجب أن تهبط على ظهرها، لكنها عادةً ما تخالف ذلك عبر لَيّ وتدوير

الكون يزخر بمشاهد من عالم النبات، وعالم الحيوان والطير، توضح أن المخلوقات هُديت للتفاعل مع قوانين الفيزياء، ليؤكد مسألتي خلقها ثم هدايتها.

جسمها لتهبط بأمان على أقدامها.

وُهبت القطط مهارة عالية في الصيد أيضًا، فلها مقدرة على تحديد السرعة والمسافة التي تفصلها عن فريستها قبل الانقضاض عليها، حتى في الأماكن التي لا تسمح برؤية جيدة؛ فهي توظف قدراتها السمعية والشمية، ويمكن ربط ذلك برياضيات السرعة والمسافة وزمن الوصول: السرعة = المسافة ÷ الزمن

فإذا ركضت القطة مسافة ١٠٠ متر في ٢٠ ثانية، فهذا يعني تحركها بمتوسط سرعة ٥ أمتار/ثانية.

نعم، القطط لا تعرف الفرق بين قوانين "نيوتن" وقوانين "آينشتاين"، لكنها قادرة على فهم أن "لكل سبب نتيجة، واحتكاك الأجسام ببعضها يُصدر عنه صوت، وكلما كانت الحركة أقوى كان الصوت أعلى".

ففي دراسة أُجريت باليابان عام ٢٠١٦م، تم مراقبة ٣٠ قطًا أليفًا (١٣ ذكرًا، و١٧ أنثى، تتراوح أعمارها بين شهرين و١٢٦ شهرًا). وتم تحريك علبة بلاستيكية سوداء فارغة أو ممتلئة بالعصير، ثم تُقلب العلبة فيُشاهد القطُّ هل يسقط منها شيء أم لا؟

وصُمم نصف المحاولات ليكون فيها الوضع مخالفًا للفيزياء؛ فكانت القطط في حيرة من أمرها، إذ يصدر الصوت دون سقوط العصير، أو يسقط العصير دون حدوث صوت. وعندما تجد القطط نفسها في وضعية غريبة، تبقى ساكنة (مندهشة) لفترة طويلة تحدق في العلبة وتتساءل كيف يتم ذلك؟! مما يدل على قدرتها على التنبؤ بوجود أو غياب شيء غير مرئي اعتمادًا على الصوت الصادر الذي تلتقطه عبر حاستها السمعية القوية.

كيف تشرب القطط؟

كان يُظن أن القطط تشرب المياه كالكلاب عبر الغرف كالملعقة، لكنها في الحقيقة تستخدم قوانين "القصور

hiragate.com

الذاتي" وقوة دفع الأجسام ضد الجاذبية. فهي ترفع المياه بلسانها إلى الأعلى وتترك للفيزياء أن تأخذ مجراها، لتدخل المياه إلى جوفها بسلاسة، بينما المتبقي منه -الذي لم ترفعه للأعلى- يسقط مرة أخرى، وتكرر الأمر حتى ترتوي. وبالتالي، على القطة أن تحدد الوقت المناسب لتغلق فمها على المياه كي لا تسقط، وتتم تلك العملية في جزء من الثانية، وتحسبها القطة -فطريًّا- في كل مرة تغلق فمها بدقة. كل هذه الشواهد والتجارب البحثية المقارنة، جعلت العلماء يقرّون بأن القطط هي الحيوان الأعلم فيزيائيًّا.

إنها تفهم قوانين الفيزياء

قام فريق من جامعة الطب البيطري في فيينا، بتكييف نظام تتبع العين المستخدم على الأطفال الرضع، فتم تدريب أربعة عشر كلبًا أليفًا على وضع رؤوسها على راحة فكوكها السفلية أمام معدات تتبع العين، وتم اختبار مبدأ الاتصال السببي الكامن خلف قوانين "نيوتن" الثلاثة للحركة التي وضعها عام ١٦٨٦م، هي:

١- الجسم الساكن يبقى ساكنًا، والجسم المتحرك يبقى متحركًا ما لم تؤثر عليه قوة ما.

٢- إذا أثّرت قوة على جسم ما، فإنها تكسبه تسارعًا يتناسب طرديًّا مع قوتها وعكسيًّا مع كتلته.

٣- لكل قوة فعلٍ قوةُ رد فعلٍ مساويةٌ لها في المقدار ومعاكسة لها في الاتجاه.

فعرضوا على الكلاب رسومًا متحركة -بتقنية ثلاثية الأبعاد- لكرات تتحرك أو ترتد بطرق مختلفة، أو تتحرك دون تأثير قوة ما. وعُرضت مقاطع الفيديو بترتيب عشوائي، حيث أظهر بعضها كرة تتدحرج نحو كرة ثابتة ثانية، ثم تصطدم بها، فتحرك الكرة الثانية وتتوقف الكرة الأولى، تمامًا كما يوحي قانون نيوتن للحركة، بينما عرضت مقاطع أخرى فوضوية لا تخضع لقوانين نيوتن.

تتبع الباحثون اتساع حدقة العين ومدى اهتمام الكلاب، فوجدوا أن الكلاب أبقت حدقة أعينها مفتوحة على مصراعيها وقتًا أطول عندما تدحرجت الكرات من تلقاء نفسها، أو ارتدت بطرق غير منطقية وغير متوقعة ومتحدية قوانين فيزياء الحركة، مما يشير إلى أنها فوجئت أو استغربت عندما تحدّت الكرات قانون الفيزياء محدثة سيناريوهات خاطئة.

وقد تصرفت الكلاب بالطريقة نفسها التي يتصرف بها البشر (الرضع منذ عمر سبعة أشهر) والقردة العليا (الشمبانزي) في دراسات مماثلة.

وعندما تكون الكلاب وبعض الدببة والفئران مبتلة، فإنها تحرك عمودها الفقري حركة اهتزازية (اهتزاز الجسم حول موضع سكونه في اتجاهين متضادين وفي فترات زمنية متساوية)، لتنفض الماء عن شعرها. ويمكنها ترك المياه تجف عبر التبخر، لكن بهذه الطريقة توفر كمية من الطاقة التي يمكن أن تفقدها بالتجفيف عبر التبخر وسخونة أجسامها.

وفي مقاطع فيديو مسجّلة، نرى ماعزًا صغيرًا يتراجع إلى الخلف قبل ركل كرة ليشحنها بقوة الدفع اللازمة، وكذلك تفعل الكباش عندما تتناطح وتتقاتل فيما بينها لتعطي قوة دفع لضربات قرونها.

الجمباز البيولوجي

لتثبيت الريش في موضعه؛ لتعزيز قوة الرفع والدفع أثناء الطيران عند الطيور، تعمل خطاطيف وأشواك صغيرة في الريش كلاصق "فيلكرو" (Velcro) أي "الخطاف"، وهو مثبت صناعي شهير يُستخدم في صناعة الملابس والأحذية والحقائب وغيرها، ويتكون من قطعتين: قطعة فيها خطاطيف كثيرة، وقطعة أخرى من حلقة أهداب وعُرًى، تلتصقان ببعضهما بمجرد الضغط عليهما، وتنفكان بسهولة.

وتعمل قوى التماسك والجذب بين الذرات والخلايا، على تسهيل قدرة "أبو بريص" وبعض الحشرات الطائرة والزاحفة على تسلق الجدران والزحف أو المشي على الأسقف، متغلبة على قوة الجاذبية الأرضية ومبدأ السقوط الحر. كما يوفر قوامها البيولوجي وأنسجتها وهياكلها، التصاقًا أكبر لهذا الجمباز البيولوجي، مما يساعد على الحركة وتخفيف قوى فيزياء الاحتكاك بين أجزاء وأسطح الحيوانات.

فنجد لحراشف ثعابين كاليفورنيا الملكية قوامًا يسمح بالانزلاق السريع للأمام، لكنها تزيد من قوى الاحتكاك لتأخير الحركة الخلفية أو الجانبية. أما بعض

hiragate.com

الثعابين -التي تتحرك بكثرة جانبيًّا- فلديها قوام بيولوجي يقلل من إعاقة الاحتكاك في اتجاه حركتها تلك.

فيزياء الموائع والضوء

تتناغم الفيزياء الداخلية للمخلوقات مع الخصائص الفيزيائية للبيئة. فالتحرك خلال سائل، لا يخضع لسيطرة الجسم فحسب، بل أيضًا لخصائص هذا السائل. إذ تدفع الأسماك ذات الأجسام النحيلة نفسها بشكل أساسي عبر حركة الجسم والذيل جنبًا إلى جنب، بينما في أشكال أجسام الأسماك الأخرى، تولّد الحركة عبر تحريك زعانفها.

واهتدت إناث البعوض إلى قوانين أرخميدس في الطفو، فنجدها تزود كل بيضة من بيوضها بكيسين من الهواء لتطفو بهما على سطح الماء.

وتساعد الأسطح المانعة لنفاذية الماء، على تسهيل سباحة الطيور المائية وإقلاعها وطيرانها، بينما يسهل ريش طيور الغاق المائية تغلغل الرطوبة فيه ليساعدها على الغطس أسرع وأعمق لصيد الأسماك. كما تعمل الموائع على نظافة الجلود والحماية من الطفيليات الخارجية.

ومن الضروري إزالة المواد الغريبة من سطح الحيوان، للحفاظ على خصائصه الفيزيائية وتفاعله مع الضوء، عاكسًا ألوانه المتنوعة، التي لها صلة بسلوكيات متعددة؛ فهو يعزز عملية التمويه، والهروب من الأعداء أو إخافتهم بالتسمم، كما في بعض أنواع الضفادع الزاهية اللون، كما تسهّل الألوان عملية الصيد والتغذية، فضلًا عن أهميتها في عملية المغازلة والتزاوج.

مساكن فيزيائية

تخضع البِنى التشريحية للمخلوقات وأجهزة تنفسها، لفيزياء تبادل الغازات والتحكم في درجة الأكسدة والحرارة والرطوبة والتهوية ضمن نطاق مريح. فبدون تبادل الهواء بشكل كاف ستختنق المخلوقات. فمن الطيور مرورًا بالنحل والنمل والدبابير إلى القنادس والغرير، فُطرت المخلوقات على بناء الأعشاش والجحور والأنفاق والسدود للحماية من مختلف التهديدات البيئية.

فأعشاش الطيور تجمع بين العصي والأغصان وأوراق الشجر والعشب، في هيكل هندسي موثوق من حيث الاستقرار والسلامة الميكانيكية الفيزيائية. ويبدو أن الطيور تعرف أن العصي والأغصان المرنة توفر ثباتًا أفضل من القضبان الصلبة. ولقد أظهرت التجارب الفيزيائية أن ثني المواد الأكثر مرونة، يجعل قوى الاحتكاك تساعد أكثر على تثبيت العش معًا.

وقد كثر الحديث عن بيوت النحل ومساكن النمل، وكيفية هندستها وتهويتها بطرق متعددة. ولا تتسع السطور لمزيد من الشرح في هذا المجال، لكن كلاب البراري تقوم بهندسة جحور واسعة ذات فتحات متعددة، وتختلف تلك الفتحات في الارتفاع لتوفير التهوية المناسبة، عبر اختلافات الضغط التي تحفّز تدفق الهواء.

الحيوانات المنوية تتحدى

تدفع الحيوانات المنوية البشرية نفسها بحركة موجية -وكذلك الطحالب الخضراء وحيدة الخلية "كلاميدوموناس" (Chlamydomonas) ذات السوط الرفيع المرن- عبر السوائل اللزجة باستخدام ذيولها التي تشبه السوط. وذلك في تحدٍّ لقانون نيوتن الثالث للحركة، حيث توجد تفاعلات غير متناسقة وغير متبادلة في الحيوانات المنوية، وغيرها من العناصر المجهرية السابحة لمعرفة كيفية انزلاقها عبر مواد يُفترض نظريًّا أن تقاوم حركتها.

إذ تعمل السوائل عالية اللزوجة على تبديد طاقة السوط، مما يمنع الحيامن (أو الحيوانات المنوية) من التحرك كثيرًا ومواصلة سعيها لتلقيح البويضة. ومع ذلك، يمكن للسوط المرن الذي له معامل مرونة فريدة وميكانيكا داخلية دقيقة، أن يدفع الخلايا الجنسية دون إثارة استجابة البيئة المحيطة، أي دون فقدان الكثير من طاقته للسائل المحيط. بل تنتج الخلايا طاقتها الخاصة مع كل ضربة سوط من ذيولها، وكذلك تفعل الطيور مع كل رفرفة من أجنحتها.

هذه بعض المشاهد -وغيرها كثير- من أمة النبات، وأمة الحيوان والطير، توضح أن المخلوقات هُديت للتفاعل مع قوانين الفيزياء، مما يؤكد مسألتي خلقها ثم هدايتها: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠). ■

(*) كاتب أكاديمي مصري.

hiragate.com

د. أحمد محمد القزعل*

الرؤى المنامية

١ الـرؤى المنامية هي التصورات أو الأحداث التي يراها الإنسـان أثنـاء نومه، وغالبًا مـا تكون عبارة عن تجارب حسّية وعاطفية تتراوح بين المشاهد العادية والخيالات غير المنطقية. وتختلف الرؤى المنامية من حيث طبيعتها وتفسيرها بناءً على الثقافة والمعتقدات الشخصية والدينية.

الرؤى المنامية في الطب النفسي المعاصر

تُعـدّ الـرؤى المنامية فـي الطـب النفسـي المعاصـر، تعبيـرًا عـن العقل اللاواعـي، حيـث يُعتقـد أن الأحلام قد تكون وسـيلة لتفريـغ التوترات العاطفيـة والنفسـية، أو لمعالجـة التجـارب اليوميـة. غيـر أن بعـض

المدارس النفسية، مثل مدرسة التحليل النفسي لفرويد، تفسّر الأحلام على أنها وسيلة لفهم الرغبات المكبوتة والصراعات الداخلية. وبالتالي، إن تعبير المنام وتفسير الحلم، يتم وفقًا لرموز معينة تختلف بحسب الثقافة أو المرجعية الدينية، ويُعدّ هذا الفن جزءًا من التراث الشعبي والديني، ويُستخدم لفهم الرسائل المحتملة التي قد تحملها الرؤى.

ومن الناحية الفسيولوجية، تحدث معظم الأحلام في فترات من النوم تُعرف بالنوم النشط أو نوم حركة العين السريعة (REM)، والحلم عبارة عن سلسلة من الأحداث تبدو للرائي كما لو كانت حقيقية وقتها، ويتم نسيان معظم الأحلام خلال دقائق من حدوثها.

ولعل ضعف ذاكرة الأحلام يحمل حكمة عظيمة، وذلك لحمايتنا من اختلاط ذكرياتنا للأحداث الحياتية الحقيقية بتلك الخاصة بالأحلام؛ إذ يصعب حينئذ على الإنسان التفريق بين الأحداث الواقعية وتلك التي تحدث أثناء الأحلام. هذا، وبعض الأشخاص قد لا يتذكرون أحلامهم مطلقًا.

الرؤى المنامية في الديانات والحضارات القديمة

تُعطي العديد من الثقافات والديانات القديمة أهمية كبيرة للرؤى المنامية، حيث تُعتبر وسيلة للتواصل مع العالم الروحي أو تنبؤًا بمستقبل الشخص أو الجماعة.

وفي الحضارات القديمة، مثل الحضارة اليونانية والمصرية، كان تفسير الأحلام ذا مكانة عالية، وكان يُستشار مفسرو الأحلام لتوجيه الأفراد في قراراتهم.

وفي العهد القديم -وهو المرجع الديني الرئيس لدى اليهود والنصارى- ورد ذكر كثيرٍ من الأحلام والرؤى التي تحققت، وبعضها صحيح بتصديق القرآن الكريم له، مثل الرؤى التي وردت في قصة سيدنا يوسف عليه السلام.

أما عند الهندوس، فقد وُجدت مخطوطة من القرن الخامس قبل الميلاد تُدعى "أترافافيدا" تحتوي على فصل كامل للأحلام ورسائلها إلى البشر. كما ذكرت النصوص المقدسة لدى البوذيّين حلمًا نسبوه إلى بوذا، اعتبروه أساس عقيدتهم في التناسخ.

إن الرؤى المنامية موضوع يجمع بين الطب النفسي والثقافات المختلفة والنصوص الدينية؛ إذ قد تحمل رسائل يستخدمها الناس كأداة للتفكر والتأمل، أو حتى لاتخاذ قرارات مهمة في حياتهم.

حراء

الرؤى المنامية رموز ودلالات

الرؤى لغة مصورة يجب الاجتهاد في فك رموزها ومعرفة مفرداتها، ثم ربطها بالواقع المعيشي للرائي. ومن هنا كان تفسير الأحلام من المعارف القديمة التي اهتمت بها الأمم السابقة.

والذي نؤكد عليه هنا، أن المسلمين كانوا أول من ضبطوا الرؤى ووضعوا لها المصنفات المنهجية تحت مسمّى علم التعبير، الذي يعتمد على النزعة التكاملية من جمعٍ للرموز كلها ومعرفة حال الرائي.

وهكذا فإن علم التعبير من العلوم الإسلامية القديمة، وقد اشتهر بعض علماء المسلمين بمهارة متميزة في هذا العلم، وكان من أبرزهم محمد بن سيرين في القرن السابع الميلادي، ثم تلاه أئمة كثيرون برعوا في هذا الفن.

الرؤى المنامية في القرآن الكريم والسنة النبوية

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لم يبقَ بعدي من النبوة إلا المبشّرات"، قالوا: يا رسول الله وما المبشّرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة يَراها الرجلُ أو تُرى له" (رواه الإمام أحمد).

وينقسم ما يراه الرائي إلى ثلاثة أقسام أشار إليها رسول الله ﷺ في قوله: "إذا اقترب الزمانُ لم تَكَدْ تَكذِبُ رُؤْيا المؤمن، ورؤيا المؤمن جزء من ستةٍ وأربعين جزءًا من النبوة، وما كان من النبوة فإنه لا يَكذِبُ" (رواه البخاري).

فكلما كان المرء أكثر إيمانًا وتقوى، كانت رؤياه أكثر صدقًا وتحقّقًا. والرؤيا الصالحة الصادقة يُطلع الله بها النائمَ على ما جهله في يقظته، فالمؤمن يرى الرؤيا أو تُرى له، فتكون بشرى بخير أو ناهية عن شر. ولقد ذكر القرآن الكريم العديد من الرؤى المنامية، منها:

١- في سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ

hiragate.com

فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(الأنفال:٤٣).

٢- في سورة يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(يوسف:٤).

٣- في سورة يوسف عليه السلام أيضًا قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(يوسف:٣٦).

٤- وفي سورة يوسف عليه السلام كذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾(يوسف:٤٣).

٥- وفي سورة الصافات ذكرت رؤيا ابتلاء إبراهيم الخليل عليه السلام بذبح ولده إسماعيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(الصافات:١٠٢).

٦- وفي سورة الفتح جاءت رؤيا البشرى العظيمة التي تحقّقت بأداء عمرة القضاء ثم الفتح والنصر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(الفتح:٢٧).

ومن نافلة القول: إن الرؤى المنامية موضوعٌ غني بالمعاني والدلالات، يجمع بين الطب النفسي والثقافات المختلفة والنصوص الدينية؛ إذ قد تحمل رسائل من العقل الباطن أو تنبيهات من الله تعالى كما في النصوص الدينية، وقد يستخدمها الناس كأداة للتفكر والتأمل، أو حتى لاتخاذ قرارات مهمة في حياتهم.

وسواء أتمّ تفسير الرؤى المناميّة كرسائل من العقل الباطن أو كإشارات ذات دلالاتٍ روحيّة، فإنّها ستبقى جزءًا من صميم التجربة الإنسانيّة وواقعها. ■

(*) دكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله / سوريا.

hiragate.com

أ.د. عبد العظيم أحمد عبد العظيم*

المدينة الفاضلة
من خلال كتاب "النور الخالد"

يهدف هذا البحث إلى إبراز الجانب التحليلي للسيرة النبوية في كتابات عَلَم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وهو فضيلة الأستاذ محمد فتح الله كولن، الذي أفنى عمره في خدمة الدعوة والفكر الإسلامي، حتى ذاق حلاوة الإيمان وبشاشة الرسالة النبوية، كأنه أُلهم رؤية النبي ﷺ فأُملي عليه فرائد السيرة.

١- دعائم المدينة الفاضلة

إن الرسول ﷺ في سياسته، قد استطاع تأسيس المدينة الفاضلة التي تعشّقها الفلاسفة وتخيلوا فيها الكمال، بل قد سطّر المهاجرون الأولون ما يفوق ما تصوّره الفلاسفة، وأثبتوا أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهي الملائكة سناءً ونضارة.

فقد هرعوا من مكة إلى يثرب يحدوهم اليقين وترفع رؤوسهم الثقة.. فليست الهجرة انتقال موظّف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ، ولا ارتحال طالب قوتٍ من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، بل هي إكراه رجل آمنٍ في سربه، وإشعاره بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في الطريق، فهو يسير نحو مستقبل مبهم لا يدري ما يتمخّض عنه من قلاقل وأحزان، ولكنه نتيجة إيمانه تجده رَضيّ الضمير، وضّاء الوجه.

وفي هذا البناء المؤسسي، كان نبينا ﷺ هو الممثل الوحيد لتجلّي صفة الرحمة والرحمانية لله تعالى في الأرض، واستعمل هذه الصفة كإكسير شافٍ لفتح القلوب والتربع على عروشها. فصفة الشفقة والرأفة واللين في الإنسان، هي العامل الثاني في جذب الناس

وفتح قلوبهم بعد صفة الإخلاص والتجرّد الحقيقي.

ولم يتأتّ السمع والطاعة لأمير المدينة إلا لتمام ثقة المجتمع فيه بمبدئه وعقيدته، وتنتقل هذه الثقة بالمبدأ والعقيدة إلى صحابته، بل إلى أتباعه المخلصين إلى يوم القيامة. ومن تلك الجوانب القيادية، قدرته ﷺ على حلّ جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، العامة منها والخاصة؛ مما جعل أتباعه ينظرون إليه كقائد موثوق يعتمد عليه. كما تميزت قيادته بالمساواة بين كافة شرائح المجتمع الإسلامي في المدينة؛ فلم تبرز مشكلة العنصرية أو الطبقية قط، وهي مشكلة موجودة في أيامنا هذه في كل البلاد التي تتعدد فيها الطوائف والأعراق.

كل هذه الشواهد يمكن أن يُستخرج منها قوانين كثيرة تحلّ أزمات المجتمعات المعاصرة، والمجال يضيق عن بيانها.

وانشغل رسول الله ﷺ عند استقراره الأول في المدينة، بوضع الدعائم التي لا بد منها لقيام رسالته، وتبيّنت معالمها في الشؤون الآتية: صلة الأمة بالله، وصلة الأمة بعضها ببعض، وصلة الأمة بالأجانب عنها ممن لا يدينون بدينها.

وهذه القيادة النبوية تهوي إليها الأفئدة؛ لأنها قيادة صادقة لا تميل إلى التمثيل أو التكلف أو الخداع.

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: "أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلمّا تأملت وجهه واستثبّته، علمت أن وجهه ليس بوجه كذّاب، وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: "أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"".

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه، فتُقرأ في أساريره آيات الطهر. وقد ذهب عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعيم المهاجر، فنظر إليه محاولاً استكشاف حقيقته، فكان أول ما اطمأن إليه بعد التثبت من أحواله أن هذا ليس بكاذب، والملامح العقلية والخلقية لشخصٍ ما لا تُعرف بنظرة خاطفة، ولكن الطابع الروحي الذي يضفي على الملامح المادية، غالبًا ما يكون عنوانًا صادقًا على ما وراءه.

٢- تكوين قيادات المدينة الفاضلة

إن هذه المدينة الفاضلة وسياستها الرشيدة في الإدارة، تحتاج إلى رجال ذوي مهارات خاصة لإدارة شؤونها، والانطلاق منها لتأسيس الدولة الإقليمية في الجزيرة العربية ثم التوسع لقيادة العالم. ومن ثم لا بد من وضع قواعد دقيقة لانتقاء هؤلاء الرجال.

فالأمة الإسلامية ليست جماعة من الناس همّها أن تعيش بأي أسلوبٍ أو تخطّ طريقها إلى أي وجهة، وما دامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت. كلا كلا.. فالمسلمون أصحاب عقيدةٍ تحدد صلتهم بالله، وتوضّح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شؤونهم الداخلية والخارجية، فهم يريدون أن يستضيئوا بالوحي، وأن ينالوا رضوان الله، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس وقامت الحياة.

ويضيف الإمام محمد الغزالي في ذلك قائلاً: "أما عن صلة الأمة بعضها ببعض، فقد أقامها الرسول ﷺ على الإخاء الكامل؛ الإخاء الذي تُمحى فيه كلمة "أنا"، ويتحرك فيه الفرد بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فلا يرى لنفسه كيانًا دونها، ولا امتدادًا إلا فيها. ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية؛ فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه. وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحيةً تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر".

إن الإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة؛ فحيث يشيع الجهل والغشّ والجبن والبخل والجشع، لا يمكن أن يصحّ إخاءٌ أو تترعرع محبة. ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جُبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادئ رضية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله.

على أنّ تنويهنا بقيمة التسامي النفساني في تأسيس الإخاء، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظامًا يؤخذون بحقوقه أخذًا، فإذا لم يؤدّوها طوعًا أدّوها كرهًا، كما يُجبرون على العلم والجندية وأداء الضرائب وغير ذلك.

hiragate.com

ومع التربية الإيمانية كانت التربية الجهادية. فقد بلغت شجاعة المسلمين وبسالتهم حدًّا لم تعرفه أمة معاصرة. وقد أكسبتهم هذه الروح العالية إقدامًا حقّر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت دهورًا تصول وتجول لا يوقفها شيء. إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليسا فروسيةً احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدّت الرجال إلى الأطفال، فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غالٍ عزيز.

وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار قائلين: يا فرّارُ! أَفَررتم في سبيل الله؟! إن أولئك الصغار يرون انسحاب خالدٍ ومَن معه فرارًا، يقابل بالتراب. أيّ جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟! أيّ نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟! مَن آباؤهم؟! من أمهاتهم؟! كيف كان الآباء يربّون؟! وكيف كانت الأمهات يدلّلن؟! إن مسلمي اليوم بحاجة ماسّة إلى أن تعرف هذه الدروس.

لقد اكتشف الرسول ﷺ القدرات والإمكانات لدى الصحابة رضي الله عنهم، ثم قدّرها واستغلها الاستغلال الأمثل لتنمية المجتمع. فالقائد لا يقتصر على الإشراف، وإنما يكتشف بنفسه القدرات والمواهب، ثم يضع كل فرد في المكان المناسب، ويشجع هذه المواهب، مما يبثّ فيهم الحماس، ويحفّزهم على إنجاز المهام على أكمل وجه.

وكان النبي ﷺ لا يلتفت إلا إلى الجدارة، فمن استحقّ منصبًا بكفايته قدّمه له غير مكترثٍ بحداثة سنّه، فإنّ كِبَر السن لا يهَب للأغبياء عقلاً، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً. ولذلك قال رسول الله ﷺ ردًّا على اعتراض الناقدين على تولية أسامة بن زيد زعامة الجيش المتجه إلى الشام: "أَنْ تَطْعُنُوا في إمارته فقَدْ كنتم تَطْعُنُون في إمارة أبيه مِن قبْلُ، وايْمُ اللهِ، إنْ كان لَخَلِيقًا للإمارة، وإنْ كان لمِنْ أحبِّ الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمِنْ أحبِّ الناس إليَّ بَعْدَهُ". (رواه البخاري)

كما تتجلّى قدرة القائد على الثواب والعقاب العادل المبني على مصلحة الجماعة، لا على معايير شخصية. وهذه القدرة تدعو الفريق إلى مراعاة المصلحة العامة؛

أسس الرسول ﷺ المدينة الفاضلة التي تعشّقها الفلاسفة وتخيلوا فيها الكمال، بل قد سطّر المهاجرون الأولون ما يفوق ما تصوّره الفلاسفة، وأثبتوا أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهي الملائكة سناءً ونضارة.

اقتداءً بالقائد، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع سعد بن عُبادة ﷺ الذي كان يقود كتيبة الأنصار في فتح مكة، فلما قال: "اليومُ يومُ المَلْحمة، اليومُ تُستَحلُّ الحُرُمة"؛ عزله ﷺ وجعل الزبير بن العوَّام مكانه على الأنصار مع المهاجرين، وكان ذلك بطريقة سلسة لا تستفزّ المشاعر أو تحرك الفوضى.

٣- الأخذ بأسباب التمكين

لم يعتمد الرسول ﷺ في سياسته العليا على معطيات الوحي فحسب؛ بل درّب أتباعه بالقدوة على الأخذ بالأسباب، والسعي ببذل الجهد لبلوغ الغاية. ومثال ذلك أنَّ رسول الله ﷺ أحكم خطّة هجرته، وأعدّ لكلّ فرض عدّته، ولم يدع في حسبانه مكانًا للحظوظ العمياء. وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كلّ شيء في النجاح، ثم يتوكل بعد ذلك على الله؛ لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله. فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يلومه على هزيمة ابتُلي بها، وقلّما يحدث ذلك إلا عن قدرٍ قاهرٍ يُعذر المرء فيه. وكثيرًا ما يُرتّب الإنسان مقدمات النصر ترتيبًا حسنًا، ثم يجيء عونٌ أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار.

ويضيف الأستاذ كولن: "والإبداع بالخطط المبتكرة وعدم تقليد القديم، من خصائص القيادة النبوية؛ فكان منه ﷺ تقسيم الجيش بنظام الصفوف في بدر، وهو أمرٌ لم يكن معروفًا من قبل، وكذلك حفر الخندق في غزوة الأحزاب، لم يكن من الأمور المعروفة عند العرب في حروبهم".

ويتضح مبدأ السعي وضبط أمور القيادة من خلال بعث السرايا التي استمرت أحد عشر عامًا؛ إذ يقول محمد الغزالي: "والحكمة في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو المتتابع تتلخّص في أمرين: أولهما إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية

hiragate.com

الضاربين حولها، بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلّصوا من ضعفهم القديم؛ ذلك الضعف الذي مكّن قريشًا في مكة من مصادرة عقائدهم وحرياتهم، واغتصاب دورهم وأموالهم، ومن حق المسلمين أن يُعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآلة شأنها، فإن المتربّصين بالإسلام في المدينة كثر، ولن يصدّهم عن النيل منه إلا الخوف وحده؛ وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾(الأنفال:٦٠).

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يُبطنون البغضاء للإسلام وأهله، ولا يمنعهم من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء العاقبة. أمّا الأوّلون فهم المشركون ولصوص الصحراء وأشباههم، ممن لا يبالون -لولا هذه السرايا- بالهجوم على المدينة واستباحة حماها. وقد كان من الجائز أن تتكرّر حادثة "كرز بن جابر" السابقة، ويتجرّأ البدو على تهديد المدينة حينًا بعد حين، غير أنّ هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع وحفظت هيبة المسلمين.

والأمر الآخر -في حكمة بعث السرايا- إنذار قريش عُقبى طيشها؛ فقد حاربت الإسلام ولا تزال تحاربه، ونكّلت بالمسلمين في مكة، ثم ظلت ماضية في غيّها، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله، ولا تسمح لهذا الدين أن يجد قرارًا في بقعة أخرى من الأرض، فأحبّ الرسول ﷺ أن يُشعر حكّام مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة، وأنه قد مضى -إلى غير عودة- ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص".

والأخذ بالأسباب والتخطيط يتبع فقه الأولويات، مثال ذلك ما ورد في سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: "عَزَمْتُ عليكم ألا تصلّوا العصر حتى تأتوا بني قريظة"، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن رسول الله ﷺ لم يُرِد أن تدعوا الصلاة، فصلّوا. وقالت طائفة: والله إنّا لفي عزيمة رسول الله ﷺ، وما علينا من إثم، فصلّت طائفة إيمانًا واحتسابًا، وتركت طائفة إيمانًا واحتسابًا، ولم يُعنّف رسول الله ﷺ واحدًا من الفريقين.

يوضح الإمام الغزالي فلسفة القرار وعواقبه فيقول: "وذلك يمثّل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن اجتهادٍ بريءٍ سليم، والناس غالبًا أحد رجلين؛ رجلٌ يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها، ورجلٌ يتبيّن حكمتها ويستكشف غايتها، ثم يتصرف في نطاق ما وعى من حكمتها وغايتها ولو خالف الظاهر القريب. وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه، سواء أصاب الحق أو ندّ عنه. ومن العلماء من أهدر الوقت المعيّن للصلاة بعذر القتال، وذلك مذهب البخاري وغيره".

فالإسلام تعاليم وأعمال شتّى، فيها الفرائض وفيها النوافل. ولا بد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة، فالرجل الذي يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذي يُهمل فيه فرائض لازمة، رجلٌ ضالّ. والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان، كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم. وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها أو الزلالية وحدها، بل لا بد من استكمال جملة منوّعة من الغذاء، وإلا تعرّض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله؛ فكذلك الدين، لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض المتنوّعة، تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه. وعلى المسلم أن يُقسّم وقته وينظّمه على هذه الفرائض المطلوبة، فلا يشغله واجب عن واجب، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب.

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدّتهم ويقوّوا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة، فلا ينبغي أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة. فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال.

وزالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق، وظهرت المدينة الفاضلة لأول وآخر مرة في التاريخ بفضل رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار. وإن كان عمر تلك المدينة لم يتجاوز أحد عشر عامًا، إلا أنها تعدّ نبراسًا لمن أراد بناء مدينة فاضلة. ■

(*) أستاذ جغرافيا الأديان، وكيل كلية الآداب، جامعة دمنهور / مصر.

المراجع

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي، ط١، دار القلم، دمشق ١٤٢٧هـ.

(٢) النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، محمد فتح الله كولن، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٧م.

hiragate.com

د. مصطفى محمود حنفي*

الترتيب الداخلي للنفس وحاجتنا إليه

إن من أعظم ما يفتقده الإنسان في عصر السرعة والضجيج، هو الترتيب الداخلي للنفس؛ ذاك النظام الباطني الذي ينسق بين العقل والقلب والروح، ويمنح صاحبه القدرة على السير في الحياة بوعي واتزان، في انسجام مع سنن الله تعالى في الوجود. فالنفس التي لم تُهذّب على الصبر والاتساق والطمأنينة، تكون كالسفينة في بحر هائج بلا بوصلة، تتقاذفها أمواج العجلة والقلق حتى تنهك، وتضيع منها البوصلة نحو السعادة الحقيقية.

معنى الترتيب الداخلي للنفس

الترتيب الداخلي ليس مجرد ضبط للوقت أو تنظيم خارجي للمهام، بل هو حالة من الانسجام العميق بين قوى النفس المختلفة.. هو أن يعيش الإنسان على وعي بأن للحياة نظامًا إلهيًا لا يُخرق، وأن كلّ ثمرة تحتاج إلى نضج، وكلّ غاية لا تُنال إلا بالتدرج والصبر. قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد:٨).

فمن أدرك هذا القانون الإلهي عاش مطمئنًّا، ومن تجاهله عاش مضطربًا متسرعًا يريد النتائج قبل أوانها، فيحصد الخيبة والتعب.

أثر غياب الترتيب الداخلي

عندما تغيب حالة الترتيب، تفقد النفس توازنها وتغدو أسيرة للعجلة والاندفاع، فيصبح همّ صاحبها أن يبلغ النتائج السريعة ولو على حساب السنن الإلهية والحقائق الواقعية. وقد أشار "ابن القيم" في "مدارج السالكين"، إلى أن من أعظم أمراض النفس "الاستعجال في الطريق إلى الله دون تمكّن في المنازل"، مؤكدًا أن التدرج والتزكية هما سبيل الثبات.

إن ضعف الإيمان بالسنن الإلهية هو الجذر العميق لهذا الاضطراب الداخلي.. فالله تعالى جعل الوجود قائمًا على قوانين دقيقة لا تتبدل، فقال سبحانه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٦٢).

ومن جهل هذه السنن عاش في صراع مع الزمن، فإذا تأخرت النتائج جزع، وإذا طال الطريق ملّ، لأن رؤيته محدودة الأفق، لا ترى الحكمة في التأخير ولا الرحمة في البلاء.

ويقول "الغزالي" في "إحياء علوم الدين": "من عرف مراتب نفسه واشتغل بترتيبها، نجا من اضطراب الدنيا وضيقها"، في إشارة إلى أن الجهل بمراتب النفس وبقوانين الله في الإصلاح، يؤدي إلى الفوضى والاضطراب. كما يؤكد "عبد الرحمن حبنكة الميداني" في "الأخلاق الإسلامية وأسسها"، أن الجهل بسنن الله في الأنفس والمجتمعات "يوقع صاحبه في التخبط، ويفسد رؤيته للحياة"، لأن العقل حين يغيب عنه مبدأ السنن، يفسر الأحداث بمنطق الانفعال لا بمنطق الإيمان.

وهكذا تتحول العجلة إلى مصدر لليأس والانكسار، وتصبح النفس سريعة الاضطراب أمام الإخفاق أو البطء، فيغيب عنها الاتزان الداخلي، وتفقد قدرتها على الصبر والمثابرة، فتعيش في دوامة من التشتت والجزع.

التغيير يبدأ من الداخل

الإصلاح الحقيقي لا يبدأ من المظاهر، بل من القلب. فقد قال النبي ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب". (رواه البخاري)

وهذا القلب لا يستقيم إلا إذا رُتّب داخليًّا، بحيث يعرف مراتب الأمور ويضع لكل شيء قدره. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾(النحل:١٢٧). فمن لم يتربَّ على الصبر والاتزان، لم يدرك أسرار التدرج، وظل أسيرًا لعجلةٍ تفسد العمل وتطفئ النور الداخلي.

خطوات عملية لترتيب الداخل

١- الوعي بالسنن الإلهية: أن يدرك الإنسان أن لكل أمرٍ وقته ومساره، وأن استعجال النتائج خروجٌ عن ناموس الله. من فقه هذه السنن عاش على بصيرة، ومن جهلها عاش مضطربًا في قراراته ومواقفه.

٢- التهذيب الروحي: بالمداومة على الذكر والصلاة وتلاوة القرآن، إذ هي مصادر الهدوء الداخلي والاتصال بالله، وتغرس في القلب سكينةً تحميه من القلق والتيه. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨).

٣- المراجعة المستمرة للنفس: فالتأمل والمحاسبة الدورية، تجعل الإنسان يعيد ترتيب أولوياته ويصحّح مساره. قال الحسن البصري: "رحم الله عبدًا وقف عند همّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخّر".

٤- الموازنة بين الطموح والطاقة: لا يُرهق نفسه بما لا يطيق، ولا يقعد عن السعي. فالاتزان هو سرّ الاستمرار، والطموح المعتدل هو وقود النجاح.

٥- الصبر والمثابرة: فالتدرج سنة الله في التكوين والإصلاح. الصبر ليس سلبية، بل وعيٌ بالمسار وتقبلٌ لحكمة الزمن. قال عبد الكريم بكار في "من أجل بناء جديد للإنسان": "الصبر هو فنّ التعامل مع الزمن في ضوء الإيمان".

أثر الترتيب الداخلي في الحياة

النفس المرتبة داخليًّا تثمر راحة وسكينة، وتصبح قادرة على العطاء المتوازن. فهي ترى في التأخير حكمة، وفي البلاء تربية، وفي الصبر طريقًا إلى العزة. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:١٥٣).

مثل هذه النفس تعيش في انسجام مع ناموس الكون، لا يخذلها الاضطراب ولا يهزمها القلق، لأنها

hiragate.com

تنظر إلى الحياة من علٍ، بعين الإيمان لا بعين الانفعال. وقد عبّر فريد الأنصاري في "مجالس القرآن" عن هذه الحالة بقوله: "الطمأنينة ثمرة التوحيد العملي، إذ لا يضطرب من علم أن الله على كل شيء قدير، وأن لكل أمرٍ حينًا يقدّره بحكمته".

فالنفس المرتبة داخليًّا قادرة على تحويل المحن إلى منح، والتحديات إلى فرص للنضج. وهي التي تتذوق السعادة الحقيقية لأنها راضية بقدر الله، واثقة من حكمته، مطمئنة إلى سيرها في طريق منظم لا فوضى فيه.

الترتيب الداخلي في ضوء قصص الأنبياء والصالحين

قصص الأنبياء تمثل تجسيدًا حيًّا للاتزان الداخلي والصبر السنني.

أ- نوح عليه السلام **(الثبات أمام الزمن)**: مكث نبي الله نوح عليه السلام تسعمائة وخمسين عامًا يدعو قومه، ولم يتغير عزمه أو يضطرب قلبه رغم قلة المستجيبين. قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾(العنكبوت:١٤).

إنه نموذج للصبر الهادئ الناتج عن ترتيب داخلي ثابت على صبرٍ تسعمائة وخمسين عامًا دون أن ييأس، لأنه كان على وعي تام بالسنن الإلهية.

ب- إبراهيم عليه السلام **(الطمأنينة في البلاء)**: حين ابتُلي إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، لم يجزع، بل سلّم لله تسليمًا كاملاً: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾(الصافات:١٠٣).

هذا الإيمان الهادئ ثمرة وعي روحي عميق وتدرج في مراتب التسليم؛ فلقد واجه الابتلاءات مطمئنًّا، لأنه رتّب داخله على التسليم والثقة.

جـ- موسى عليه السلام **(الثقة في الموقف الحرج)**: قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦١-٦٢).

لم يتزلزل موسى عليه السلام أمام الخطر، لأن داخله كان مرتّبًا على الثقة بالهداية الربانية لا على الخوف من الواقع.

د- يوسف عليه السلام **(التدرج في طريق التمكين)**: مرت حياة يوسف بمحن متتابعة، لكنه لم يخرج عن طمأنينته وثقته بالله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾(يوسف:٢١).

لقد تعلّم أن التمكين لا يُنال إلا عبر التدرج وضبط

النفس المرتبة داخليًّا تثمر راحة وسكينة، وتصبح قادرة على العطاء المتوازن، فهي ترى في التأخير حكمة، وفي البلاء تربية، وفي الصبر طريقًا إلى العزة.

الداخل على الصبر الجميل؛ فتدرّج من الجبّ إلى القصر، ثم السجن فالتمكين بثباتٍ نفسي عجيب.

هـ- أما سيد الخلق النبي محمد ﷺ، حين اختبأ في الغار، قال لأبي بكر: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما". فكانت كلمةً تلخص جوهر الترتيب الداخلي للنفس النبوية: سكينة، وثقة، ورضا.

ومن الصالحين، قال الشافعي -رحمه الله- تنبيهًا على خطورة العجلة: "من استعجل الشيء قبل أوانه، عوقب بحرمانه".

وابن تيمية -رحمه الله- في سجنه قال: "ما يصنع أعدائي بي؟ جنتي وبستاني في صدري"، وهو قمة الصفاء الداخلي.

وكذلك بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- الذي حوّل السجن إلى مدرسة إيمانية سماها "المدرسة اليوسفية"، كتب فيها رسائل النور، دلالةً على الترتيب الداخلي الرباني النوراني، ولا نُزكّي على الله أحدًا.

خاتمة

إن الدعوة إلى ترتيب الداخل ليست ترفًا فكريًّا، بل ضرورة وجودية لإنقاذ الإنسان من تيه العصر واضطراب النفس. فالإيمان بالسنن الإلهية، والصبر على التدرج، ومجاهدة النفس على الاتزان، هي مفاتيح السعادة والنجاح الحقيقي. وكما قال "عبد الكريم بكار": "إن بناء الداخل هو الضمانة الكبرى لاستقامة الخارج".

فليكن سعينا أن نرتب ذواتنا من الداخل، لنحيا في طمأنينة عميقة، ونمضي بثبات نحو العزة والتمكين والسعادة الحقيقية، في انسجام مع سنن الله في الأنفس والآفاق. ■

(*) كاتب وباحث أكاديمي مصري.

hiragate.com

حورية بلقاسمي*

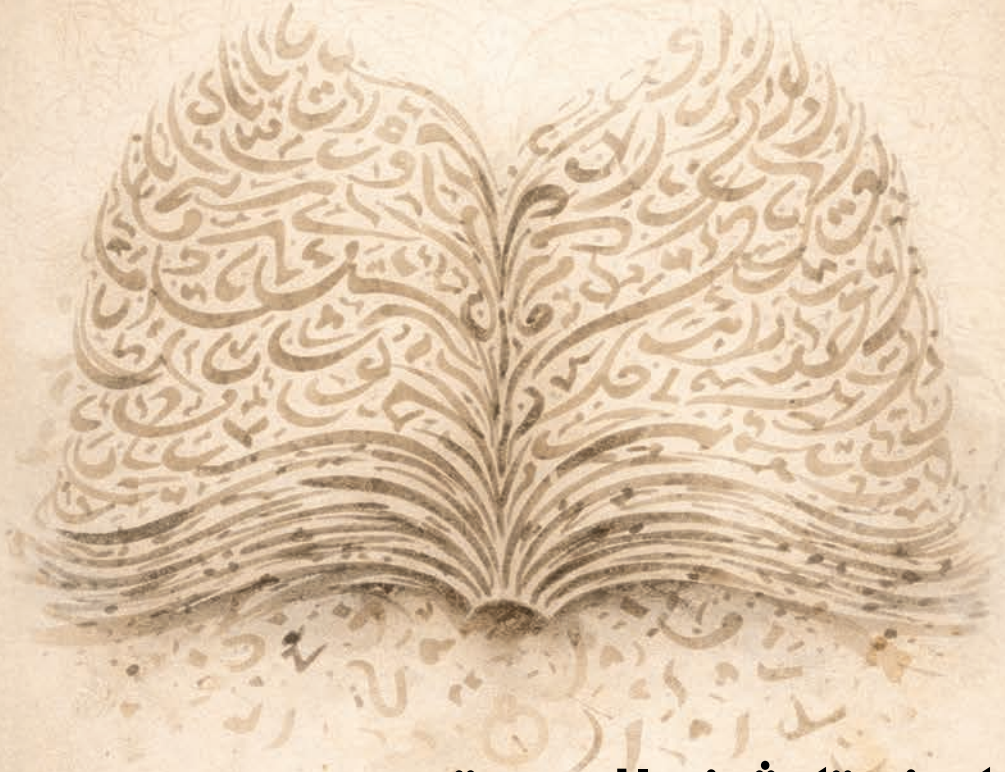

كيف تكشف العربية أسرار الشريعة؟

في خضم التغيرات الفكرية الكبيرة التي يشهدها عصرنا، ومع تعدد اللغات والثقافات، يظهر سؤال جوهري في ساحة الفكر، وهو: ما المكانة المحورية للغة العربية في هذا السياق المتغير، خاصةً وأنها المدخل الأساسي للعلوم الشرعية؟ إن الجواب عن هذا السؤال لا يكون بمجرد استعراض سطحي لوظائف اللغة في التواصل، بل يكمن في فهم عميق لطبيعتها الأساسية، فهي الوعاء المعرفي الذي اختاره الله ﷻ ليحتضن كتابه الخالد القرآن الكريم، ولتكون لسانًا لسنَّة نبيه محمد ﷺ. ومن هذا المنطلق، فإن فهم هذه اللغة ليس مجرد إضافة فكرية هامشية، بل هو ضرورة أساسية لكل من يريد أن يفهم دينه بعمق، وأن ينهل من مصادر التشريع الإسلامي الأصيلة، بعيدًا عن شوائب التفسيرات العارضة أو الترجمات التي لا تفي بالغرض.

هذه المقاربة لا تهدف فقط إلى الإقناع بأهمية اللغة العربية، بل تسعى إلى ترسيخ قناعة بأنها ليست مجرد أداة لسان، بل هي منظومة معرفية متكاملة، تمثل المفتاح المنهجي الذي يفتح أبواب التدبر والتأمل في النصوص الشرعية، وتعين على استخراج دلالاتها العميقة، وكشف مظاهرها البلاغية التي هي جوهر الإعجاز فيها.

حين تتجلى عظمة المعنى في جمال اللفظ

إن العلاقة بين اللغة العربية والعلوم الشرعية تتجاوز كونها علاقةَ وسيلة بهدف، لتصل إلى ارتباط وثيق بينهما لا ينفصل. فالقرآن الكريم، وهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، نزل بلسان عربي مبين، كما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(يوسف:٢).

هذه الآية لا تخبرنا فقط عن لغة الوحي، بل هي

توجيه إلهي يرفع من شأن العقل والتدبر، ويشير إلى أن الوصول إلى هذه المرتبة من الفهم العميق للقرآن، يعتمد على إتقان لغته. فالترجمات -رغم أهميتها في تقريب المعاني- تبقى غير قادرة على احتواء العمق الدلالي والبلاغي الذي يتجلى في النص القرآني الأصلي.

اللغة العربية، منظومة معرفية متكاملة، تمثل المفتاح المنهجي الذي يفتح أبواب التدبر والتأمل في النصوص الشرعية، وتعين على استخراج دلالاتها العميقة، وكشف مظاهرها البلاغية التي هي جوهر الإعجاز فيها.

وكمثال على ذلك، نجد مفهوم "الهدى" في القرآن الكريم، الذي يتجاوز المعنى البسيط لكلمة "الإرشاد"، ليشمل طبقات من المعاني تتنوع بين الدلالة على الحق، والثبات عليه، والتوفيق من الله، والنور الذي يزيل ظلمات الجهل والضلال. هذه المعاني المتعددة لا يمكن فهمها بوضوح إلا لمن تمكن من اللغة العربية وتذوق أساليبها البلاغية وأدرك أسرارها.

وهذا الارتباط الوثيق لا يقتصر على القرآن الكريم، بل يمتد ليشمل السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني للتشريع. فأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، والتي هي مادة علم الحديث، قد وردت كلها باللغة العربية.

إن فهم الأحاديث النبوية، مثل قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"، يتطلب فهمًا دقيقًا لمعنى "النية" في سياقها اللغوي والشرعي. فالنية في اللغة العربية لا تعني مجرد القصد (Intention)، بل تشمل العزم والإرادة، وهي دلالات لا يمكن استيعابها بعمق إلا من خلال فهم دقيق للمفردة العربية واستعمالاتها المتعددة.

إن اللغة العربية تتميز بغنى معجمي وبلاغي فريد، يظهر في كثرة المترادفات، وتنوع الأضداد، وعمق الأساليب البلاغية التي تمنح النص القرآني والنبوي طبقات من المعاني والجمال يصعب نقلها إلى لغات أخرى. فالفروق الدقيقة بين مفاهيم مثل "الخوف" و"الخشية" و"الرهبة" -على سبيل المثال- قد تُترجم جميعها إلى كلمة واحدة في اللغات الأخرى مثل Fear، لكن لكل منها دلالة خاصة في السياق الشرعي تشير إلى درجات مختلفة من هذا الشعور، وتعبر عن علاقة معينة بين الخائف ومن يخاف منه.

هذه الفروق الدلالية لا يمكن فهمها إلا لمن امتلك أدوات التحليل اللغوي والبلاغي في اللغة العربية، مما يؤكد أن اللغة ليست مجرد أداة، بل هي جزء أساسي من المعنى نفسه.

مفتاح كنوز العلوم الشرعية وأصولها المنهجية

تُعد اللغة العربية، بما تملكه من بنية لغوية عميقة ودلالات بلاغية غنية، المفتاحَ المنهجي الذي يسمح بالوصول إلى كنوز العلوم الشرعية المتنوعة، ويمكِّن من فهم أسرارها ومقاصدها.

فهذه العلوم في جوهرها ليست مجرد تجميع للمعلومات، بل هي أنظمة معرفية مبنية على أسس لغوية وبلاغية قوية، لا يمكن فهمها حق الفهم إلا بإتقان أدوات التحليل اللغوي.

ولنوضِّح هذا الارتباط بأمثلة من هذه العلوم:

١- علم الفقه: استنباط الأحكام بين النص والخطاب

يُعرَّف الفقه بأنه علم فهم الأحكام الشرعية العملية المستمدة من أدلتها التفصيلية. فالفهم الدقيق للنصوص الفقهية لا يقتصر على المعنى الظاهري للكلمات، بل يتجاوزه إلى فهم دلالاتها العميقة وسياقاتها.

ففي قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، تتجاوز كلمة "أقيموا" مجرد الأمر بالفعل، لتشير إلى معنى أعمق يتعلق بأداء الصلاة على أكمل وجه، مع استيفاء شروطها وأركانها وسننها، مع حضور الخشوع والقلب. هذا الفهم الدقيق، لا يمكن الوصول إليه إلا بتحليل لغوي يراعي الأبعاد البلاغية للفعل "أقام" في اللغة العربية.

ولعل أوضح مثال على هذا الارتباط بين اللغة والفقه، يظهر في الخلافات الفقهية التي كثيرًا ما تنشأ عن اختلاف في فهم الدلالات اللغوية للنصوص. ففي مسألة "مسح الرأس" في الوضوء، يتركز الخلاف بين الفقهاء حول وجوب مسح الرأس كله أو جواز مسح بعضه على فهم حرف الباء في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾(المائدة:٦).

فمن فهم أن الباء للإلصاق، أوجب مسح جميع الرأس، ومن فهم أنها للتبعيض (أي تدل على مسح جزءٍ منه)، اكتفى بمسح بعضه. هذا المثال يوضح كيف أن الفهم الدقيق لحرف واحد في اللغة العربية، وما يحمله من دلالات نحوية، يمكن أن يُحدث فرقًا جوهريًّا في استنباط الحكم الشرعي.

٢– علم التفسير: بلاغة القرآن وعمق الدلالة

التفسير هو العلم الذي يُعنى بفهم معاني القرآن الكريم، ولا يمكن التعمّق فيه إلا لمن امتلك أدوات التحليل اللغوي والبلاغي. فالكلمات في القرآن ليست مجرد مفردات، بل هي كيانات دلالية تحمل طبقات من المعاني لا يمكن استيعابها إلا بفهم عميق للغة العربية. فكلمة "سجى" في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(الضحى:٢)، لا تعني مجرد "غطّى"، بل تشير إلى سكون الليل وهدوئه وتغطيته للأشياء بظلامه، وهو معنى بلاغي يضيف للآية بُعدًا جماليًّا ودلاليًّا عميقًا.

إن المفسرين المتقنين للغة العربية، يستطيعون استخراج هذه المعاني الدقيقة وربطها بسياق القرآن العام، مما يفتح آفاقًا جديدة للفهم والتدبر.

ومن الأمثلة البلاغية على هذا العمق، كلمة "الأمة" في القرآن، التي تأتي بمعان متعددة تتجاوز مجرد "الجماعة من الناس". فقد تعني الجماعة كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠)، وقد تعني القدوة كما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾(النحل:١٢٠)، وقد تعني مدةً من الزمن كما في قوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾(يوسف:٤٥). هذه المعاني المتعددة، لا يمكن تمييزها إلا بفهم دقيق لسياق الآية ودلالات الكلمة في اللغة العربية.

٣– علم الحديث: المنهج النقدي ودلالات الألفاظ

يُعنى علم الحديث بدراسة أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وهو علم يعتمد اعتمادًا كليًّا على اللغة العربية في فهم المتن (نص الحديث) والسند (سلسلة الرواة). إن معرفة دلالات الألفاظ، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والعام والخاص، كلها أدوات أساسية لا يمكن إتقانها إلا بفهم عميق للغة.

ففي حديث "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"، يظهر سؤال حول دلالة "لا صلاة" هنا: هل تنفي وجود الصلاة تمامًا (أي تبطلها)، أم تنفي كمالها؟ الإجابة تتوقف على فهم قواعد النفي في اللغة العربية وما تشير إليه من دلالات بلاغية تحدد الحكم الشرعي الصحيح. إن علماء الحديث والفقه ينظرون بعمق في هذه الدلالات اللغوية لاستنباط الحكم، مما يثبت أن اللغة جزء لا يتجزأ من المنهج النقدي في علم الحديث.

٤– علم العقيدة: دقة المصطلح وعمق المعنى

يبحث علم العقيدة في أصول الدين وقواعده، ويتطلّب فهمًا دقيقًا للمصطلحات الشرعية في القرآن والسنة. فالفروق الدقيقة بين أسماء الله الحسنى وصفاته، مثل "الرحمن" و"الرحيم"، تتطلّب فهمًا لغويًّا عميقًا. فكلمة "الرحمن" تشير إلى الرحمة الواسعة التي تشمل جميع المخلوقات، بينما "الرحيم" تشير

إلى الرحمة الخاصة بالمؤمنين. هذه الفروق الدلالية لا يمكن استيعابها إلا بتحليل لغوي يراعي الأبعاد البلاغية لهذه الأسماء والصفات. إن المذاهب المختلفة في العقيدة، كثيرًا ما تنشأ من اختلافٍ في فهم الدلالات اللغوية للنصوص، مما يثبت أن اللغة هي الأساس الذي تُبنى عليه المنظومات العقدية.

أبعاد معرفية وروحية

إن تعلّم اللغة العربية لا يقتصر على فوائد نظرية، بل يمتد ليشمل فوائد عملية تساهم في تعميق الفهم الديني، وتوسيع المدارك، وتعزيز الارتباط الروحي. ويمكن تلخيص هذه الفوائد في النقاط التالية:

أ- الوصول المباشر إلى المصادر الأصلية

إن من أعظم ثمار تعلّم اللغة العربية، القدرة على الوصول المباشر إلى مصادر الدين الإسلامي الأصلية. فالمتعلم يصبح قادرًا على قراءة أمهات كتب التفسير، مثل "جامع البيان" للطبري، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، وكتب الحديث كـ"صحيح البخاري" و"صحيح مسلم"، وكتب الفقه كـ"بداية المجتهد" لابن رشد، بلغتها الأصلية.

هذا التمكن، يحرر الباحث من قيود الترجمات التي قد تكون حاجزًا يمنع فهم الدلالات الدقيقة، أو قد تنقل آراء المترجم الشخصية. القراءة المباشرة تتيح للباحث استنباط المعاني بنفسه، والتعمق في فهم المسائل من منابعها الصافية.

ب- العمق في الفهم

تعلّم اللغة العربية ليس مجرد حفظ مفردات وقواعد، بل هو عملية تساهم في بناء العقلية، وتمكّن من الوصول إلى فهم عميق يتجاوز المعرفة السطحية. فاللغة العربية بمنطقها وأساليبها البلاغية تصبح أداةً للتفكير، لا مجرد أداة للتعبير. وهذا يمكّن الباحث من فهم الفروق الدقيقة بين المصطلحات الشرعية، وإدراك الروابط الخفية بين النصوص، واستيعاب مقاصد الشريعة بشكل أعمق.

على سبيل المثال، التمييز بين مفهومي "العدل" و"القِسط"؛ فكلاهما قد يُترجم إلى Justice، لكن العدل يشير إلى إعطاء كل ذي حق حقه، بينما القِسط يشير إلى العدل المصحوب بالإنصاف وعدم الميل. هذا الفارق الدقيق لا يُفهم إلا من خلال فهم عميق للغة.

جـ- الجانب الروحي

لا يمكن إغفال الأثر الروحي لتعلّم اللغة العربية، فعندما يُفهم القرآن بلغته الأصلية، يشعر القارئ بارتباط أعمق بكلام الله ﷻ. كل آية تُقرأ وتُتأمل، تلامس القلب بشكل مختلف، وتُحدث أثرًا روحيًّا لا يمكن للترجمات أن تُحدثه. وهذا الفهم المباشر يعزز الإيمان، ويزيد من الخشوع، ويقوي العلاقة بالله ﷻ ورسوله ﷺ.

اللغة العربية كأساس معرفي

في الختام، نؤكد أن اللغة العربية ليست مجرد أداة تواصل، بل هي أساس معرفي ومنهجي يشكّل بوابة رئيسة للفهم العميق للدين الإسلامي. إنها الأداة التي تمكننا من الاتصال المباشر بالنص القرآني والسنة النبوية، وتفتح لنا آفاقًا واسعة في العلوم الشرعية، وتثري حياتنا الروحية والمعرفية.

فالدعوة إلى تعلّمها ليست دعوة لاكتساب مهارة لغوية فحسب، بل هي دعوة للدخول في مشروع معرفي يعزز الوعي الديني والثقافي، ويسهم في بناء جيل قادر على فهم النصوص وتدبر معانيها، والمساهمة في إثراء الفكر الإسلامي. ■

(*) كاتبة وباحثة جزائرية.

عبد الرؤوف توتي بن حمزة*

البودكاست
نقلة نوعية
في عالم الثقافة

لقد تخطى البودكاست حدود الوسائط التقليدية كالراديو والتلفزيون، بل أصبح منافسًا لمنصات الفيديو الشهيرة كـ"اليوتيوب"، ليُحدث ثورة نوعية في عالم المحتوى الرقمي. إنه برنامج متسلسل يطل علينا غالبًا بصيغة صوتية، وأحيانًا مرئية، ويمكننا الوصول إليه في أي وقت وأي مكان، فيقدم لنا طيفًا واسعًا من المواضيع؛ من الحوارات العميقة إلى القصص الملهمة، ومن الثقافة والتكنولوجيا إلى التنمية الذاتية وغيرها.

بالإضافة إلى انتشاره الواسع، تتجلى قوة البودكاست -أيضًا- في تنوع جمهوره، وتأثيره العميق على مختلف الفئات والمجتمعات. كما تؤكد الإحصاءات هذه الحقيقة المذهلة، إذ تحكي عن ملايين المستمعين

حول العالم، الذين جعلوا البودكاست جزءًا من روتينهم الأسبوعي. وفقًا لأحد التقارير المنشورة، يستمع نحو ٤٠٪ من الأمريكيين إلى البودكاست شهريًا، مع تزايد ملحوظ في أعداد المستمعين الأسبوعيين عامًا بعد عام. وعلى الصعيد العالمي، يواصل البودكاست تحقيق شعبية مذهلة، متجاوزًا الحدود الجغرافية والثقافية. ففي دول البرازيل والهند وكوريا الجنوبية -مثلاً- أصبحت هذه الوسيلة الإعلامية ظاهرة حقيقية تجذب أعدادًا متزايدة من المستمعين، مما يعكس قدرتها على التكيف مع مختلف اللغات والاهتمامات.

لكن القصة لا تنتهي عند حدود الأرقام والإحصاءات، بل تبدأ فعليًا عند الإجابة عن سؤالين محوريين: من هم هؤلاء المستمعون؟ ولماذا يستمعون؟ خلف كل تنزيل لحلقة، وكل دقيقة من الاستماع، تكمن دوافع وتأثيرات تعيد طريقة تفكير الأفراد وتعاملهم مع العالم من حولهم. فالبودكاست يُتيح للمعلمين والمبتكرين فرصةً لنشر الأفكار وإلهام التغيير، وللشركات وسيلة لبناء الثقة من خلال القصص التي تعكس قيمها. كما يفتح المجال للناشطين لتعميق الحوار حول القضايا الاجتماعية والبيئية والسياسية، وللأفراد العاديين لمشاركة تجاربهم وهواياتهم وإثراء مجتمعاتهم. بهذه القدرة على مخاطبة مختلف الفئات، يُصبح البودكاست أداة فريدة تعزز الوعي والإبداع، وتُعيد تشكيل العلاقة بين الناس والمحتوى الرقمي.

فما الذي يجعل البودكاست أداة ساحرة تأسر القلوب؟ إنه ببساطة، امتيازه بالتكيّف مع إيقاع حياتنا المضطرب، وبقدرته الفريدة على أن يكون حاضرًا دون أن يُثقل كاهلنا. فهو يرافقنا ونحن نقود السيارة في رحلات طويلة، أو نمارس الرياضة، أو حتى في لحظاتنا الصباحية الهادئة مع كوب من القهوة؛ ليصبح جزءًا لا يتجزأ من تفاصيل يومنا، يثري عقولنا ويغذي أرواحنا. ومع مرور الزمن، تحول البودكاست إلى منصة رائدة تقدم محتوى متميزًا يتغلغل في نسيج حياتنا اليومية. إنه مساحة تُتيح لنا التوقف للحظة، للاستماع والتأمل، والاستمتاع بتجارب معرفية وترفيهية عميقة تجعل من الصوت حكاية.

البودكاست أداة تُجسّد قوة الحوار، وقيمة الفكر، وقدرة الأصوات الفردية على إحداث تغيير ثقافي واجتماعي مستدام. إنه مساحة تُتيح لنا الاستماع والتأمل، والاستمتاع بتجارب معرفية وترفيهية عميقة تجعل من الصوت حكاية.

أهم مميزات البودكاست

١- وسيلة حميمية: البودكاست هو وسيلة ذات طابع حميمي فريد. لو فكّرت في آخر مرة استمعت فيها إلى بودكاست، ألم تشعر وكأن المضيف يتحدث إليك شخصيًا، يشاركك أفكاره وكأنك في حوار خاص؟ الصوت البشري يحمل نغمات عاطفية، وتفاصيل دقيقة تعجز الكلمات المكتوبة أو مقاطع الفيديو المصقولة عن إيصالها. هذه الحميمية تُعزّز الثقة وتُقرّب المستمع من الأفكار والقصص، وحتى العلامات التجارية، بطرقٍ يصعب على وسائل الإعلام التقليدية تقليدها.

٢- وسيلة ديمقراطية وصوت للجميع: البودكاست اليوم هو رمز لديمقراطية الإعلام الحديثة، حيث كسر الحواجز التي كانت تفرضها الوسائل التقليدية، وأتاح الفرصة لأي شخص يمتلك شغفًا وصوتًا أن يكون جزءًا من هذا الفضاء الإبداعي. لقد أصبح منصة تُبرز أصواتًا مغيبة أو مهمشة، مما أضفى على المشهد الإعلامي تنوعًا وشمولية غير مسبوقين.

٣- وسيلة متخصصة: تجذب هذه المنصات جماهير متحمسة تتشارك اهتمامات محددة، مثل الطبخ النباتي، أو ألعاب الفيديو الكلاسيكية، أو قضايا الصحة النفسية.. ولا يقتصر دور هذه المجتمعات على الاستماع فحسب، بل يشمل التفاعل المستمر عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو في فعاليات مباشرة، مما يعزز الشعور بالانتماء. ويبتكر مقدمو البودكاست طرقًا جديدة للتواصل مع جمهورهم، مثل جلسات الأسئلة والأجوبة، أو مشاركة قصص المستمعين، مما يحول الاستماع إلى تجربة تفاعلية تُشعر المستمع بأنه ليس مجرد متلقٍّ، بل جزءًا أساسيًا من الحوار.

hiragate.com

٤- مقابل وسائل الإعلام التقليدية: البودكاست ظاهرة ثقافية أحدثت تحولاً جذريًّا في كيفية إنشاء المحتوى واستهلاكه. تمامًا كما غيّر البث التلفزيوني والأفلام مشهد الترفيه، حيث جاء البودكاست ليقلب موازين الإعلام. وعلى عكس وسائل الإعلام التقليدية التي تحاول استهداف جماهير عامة، يزدهر البودكاست في تلبية احتياجات الجمهور المتخصص.

٥- تحول ثقافي عميق: ما يثير الإعجاب في عالم البودكاست، الطريقة التي يُعيد بها تشكيل الثقافة في عصرنا. فعلى عكس وسائل التواصل الاجتماعي، التي يغلب عليها الإيقاع السريع واللحظات العابرة، يُفسح البودكاست المجال لحوارات عميقة مدروسة. كما أنه يدعو المستمعين إلى الإبطاء، إلى التأمل والتفاعل الجاد مع الفكر. إنها تجربة تفتقر إليها مجتمعاتنا الحديثة، حيث يغلب التسارع والتشتت.

٥- تعريف جديد للقصص والسرديات: لم يقتصر تأثير البودكاست على تغيير طريقة استهلاكنا للمحتوى، بل تجاوز ذلك ليُعيد تعريف القصص التي تُروى ومن يرويها. في الماضي كان حراس البوابة في وسائل الإعلام التقليدية يُقررون ما يستحق المشاركة وما لا يستحق، أما اليوم، فقد انفتح هذا المجال على مصراعيه، لتصبح أصوات النساء، والأشخاص الملوّنين، والمجتمعات المهمشة، أكثر قوة وتأثيرًا. من خلال البودكاست، بات بإمكان هذه الفئات تضخيم أصواتها، وتغيير السرديات، وتحدي المعايير المجتمعية السائدة. إنه شكل جديد من الديمقراطية الثقافية، حيث يُتاح لكل فرد فرصة لإيصال رسالته إلى العالم.

أسرار نجاح البودكاست

أ- إمكانية الوصول: يتسم البودكاست بسهولة الوصول، حيث يمكن تشغيله على مختلف الأجهزة في أي وقت ومن أي مكان. سواء كنت في رحلة طويلة، أو تمارس الرياضة، أو تستمتع بفترة استراحة هادئة في المنزل، يمكن للبودكاست أن يكون جزءًا من يومك بسهولة.

ب- المرونة والخصوصية: إحدى أعظم ميزات البودكاست أنه متاح عند الطلب، ولا حاجة للانتظار لموعد نشر الأخبار أو البرامج المفضلة. المستمع هو المتحكم الرئيسي؛ يختار ما يريد الاستماع إليه، متى وكيف شاء. هذا المزيج من المرونة والتنوع والتخصيص، يُقدّم للمستمعين تجربة شخصية فريدة، وهو ما يُهدد هيمنة وسائل الإعلام التقليدية التي باتت تبدو جامدة أمام هذا التطور الديناميكي.

جـ- تنوع المحتوى: تُقدّم البودكاستات مواضيع متعددة تُلبي اهتمامات شتى الفئات، سواء كنت من محبي الكوميديا أو القصص أو تبحث عن محتوى تعليمي وتحفيزي، ستجد دائمًا ما يناسب ذوقك. وسواء كنت مستمعًا يبحث عن الاسترخاء أو المعرفة، أو مبدعًا يتطلع إلى مشاركة فكره، يظل البودكاست وسيطًا ديناميكيًّا يُعيد تشكيل العلاقة بين التكنولوجيا والإنسانية.

د- تعزيز الإنتاجية: يُتيح البودكاست تعدد المهام، حيث يمكن الاستماع إليه أثناء أداء الأعمال المنزلية أو

hiragate.com

ممارسة الرياضة، وبذلك يُساعد على استثمار الوقت بكفاءة دون التضحية بالتعلم أو الترفيه.

دور البودكاست في مجالات متنوعة

• **مجال القصة والسرد:** لقد أعاد البودكاست الحياة إلى فن سرد القصص بأساليب حديثة تجمع بين عمق التقاليد وأدوات التكنولوجيا المتطورة، ما جعل القصص تُروى بطرق مبتكرة تُلهم العقول وتأسر القلوب. إنه وسيلة تجمع بين الماضي والحاضر، لتقديم محتوى يمزج بين الإبداع والحداثة، ويُثري الحوار في شتى المجالات. كما ظهرت العديد من البودكاستات التي تعتمد على السرد الشخصي، حيث يشارك الأفراد قصصهم وتجاربهم الحياتية بصدق وشفافية، مما ينشئ رابطًا عاطفيًّا عميقًا مع المستمعين، ويجعلهم يشعرون بأنهم جزء من تلك الحكايات.

• **مجال التعليم والعلوم:** تحول البودكاست إلى وسيلة تعليمية رائدة تُلهم الأفراد وتوسع آفاقهم في شتى المجالات. بفضل مرونته وسهولة الوصول إليه، أصبح البودكاست منصة مثالية للتعلم المستمر طوال الحياة. فهو يغطي مجموعة واسعة من المواضيع، من التاريخ والعلوم إلى الفلسفة وتعلّم اللغات، ما جعل الوصول إلى المعرفة عالية الجودة متاحًا للجميع، ليسهم في جعل المعرفة أكثر ديمقراطية وعدالة.

• **مجال المهنة والوظيفة:** لقد ساهم البودكاست بشكل كبير في التطوير المهني، حيث يتيح للمستمعين الوصول إلى رؤى وفكر من خبراء وقادة في مختلف الصناعات. سواء كنت تبحث عن معلومات حول التسويق، أو التمويل، أو ريادة الأعمال، يمكن للبودكاست أن يتيح لك الاستفادة من خبرات المتخصصين أثناء قيامك بأنشطتك اليومية. كما أصبح البودكاست جزءًا من العملية التعليمية التقليدية، حيث يستخدم المعلمون هذه المنصة كأداة تكميلية تدعم المناهج الدراسية، مما يعزز تجربة التعلم ويُلبي احتياجات أنماط التعلم المختلفة، ليجعل التعليم أكثر جذبًا وفعالية.

• **مجال الإعلام والصحافة:** لقد غيّر البودكاست الطريقة التي يستهلك بها الناس الأخبار، حيث أصبحوا قادرين على اختيار المواضيع والبرامج التي تتماشى مع اهتماماتهم وجدولهم الزمني. وبفضل هذا النهج الشخصي والمرن، أصبح البودكاست وسيلة أساسية في إيجاد مشهد إعلامي أكثر شمولاً ودقة، مما يعزز وعي المستمعين بالأحداث الجارية، ويفتح أبوابًا لمزيد من الفهم والتأمل.

• **المجال الثقافي والاجتماعي:** أصبحت بعض البودكاستات أصواتًا قوية لحركات ثقافية واجتماعية، حيث تحولت إلى منصات للتوعية والمناصرة. من العدالة الاجتماعية إلى القضايا البيئية والنشاط السياسي، ألهمت هذه البرامج المستمعين لاتخاذ خطوات فعلية نحو التغيير في مجتمعاتهم. لقد منح البودكاست القدرة على بناء مجتمعات تفاعلية وتعزيز الروابط الإنسانية والثقافية، مما جعله أداة فريدة تجمع بين الترفيه والإلهام، وتعمّق الشعور بالتواصل والانتماء في عالم سريع التغير. ومع مرور الوقت، أصبح للبودكاست دور بارز في صياغة الخطاب العام والتأثير على الرأي العام، حيث يُتيح المجال لمناقشات معمقة حول قضايا معقدة، مما يؤثر بشكل مباشر على وجهات نظر المستمعين.

في الختام

البودكاست لا يزال في طور النمو والتطور، محققًا تقدمًا ملحوظًا مع تطور التكنولوجيا. تسهّل أدوات الذكاء الاصطناعي عملية إنشاء المحتوى واكتشافه، بينما تفتح التنسيقات التفاعلية آفاقًا جديدة للإبداع. ومع تزايد أعداد المستمعين، تتضاعف الفرص لإيجاد الاتصال، ونشر الثقافة، وإلهام الأفراد والمجتمعات. سواء كنت مستمعًا يبحث عن الإلهام أو مبدعًا لديه قصة تستحق السرد، فإن البودكاست يُمثل أكثر من مجرد وسيلة للتواصل؛ إنه منصة تُعيد تشكيل العالم، حلقة تلو الأخرى.

إن البودكاست أداة تُجسّد قوة الحوار، وقيمة الفكر، وقدرة الأصوات الفردية على إحداث تغيير ثقافي واجتماعي مستدام. ■

(*) كاتب وباحث أكاديمي / الهند.

hiragate.com

د. صهباء بندق*

هل يساعد النوم حقًّا في تنظيف الدماغ؟

ظلّ العلماء لعقود يحاولون الإجابة عن سؤال جوهري: كيف يمكن لجزيئات النفايات البروتينية الموجودة في السائل الدماغي داخل الجمجمة، أن تعبر من عمق الدماغ إلى سطحه الخارجي، ثم إلى الجهاز اللمفاوي، وأخيرًا إلى الكلى، حيث تُعالج وتُطرد خارج الجسم؟

في عامي ٢٠١٢-٢٠١٣م، ظهر جزء من الإجابة عندما بدأ العلماء باقتراح وجود جهاز لمفاوي مسؤول عن تنظيف الدماغ. بالرغم من أن الجهاز اللمفاوي يعتمد على شبكة من الأنابيب الدقيقة لنقل الفضلات إلى مجرى الدم، فإن الدماغ يفتقر إلى هذه الأنابيب. كان يُعتقد أن الفراغات المحيطة بالأوعية الدموية الدماغية لها وظيفة مهمة، لكن لم يثبت أحد ذلك. إلا أن العلماء نجحوا في

تحديد مكان هذه الفراغات ووظيفتها، وأطلقوا على شبكة الأنابيب التي تشكلها اسمَ "الجهاز الجليمفاوي".

قبل ذلك، لم يكن مفهومًا تمامًا كيف يتخلص الدماغ من هذه الكمية الكبيرة من الفضلات، في ظل وجوده في نظام بيئي مغلق ومساحة ضيقة ومحدودة. لاحقًا، أظهرت دراسات أن السائل النخاعي يتدفق في أدمغة الحيوانات النائمة بسرعة أكبر من الفئران المستيقظة، مما يساعد على طرد الفضلات. وهنا نشأ تساؤل جديد: لماذا ينشط "الجهاز الجليمفاوي" بشكل أساسي أثناء النوم؟

ما علاقة تنظيف الدماغ بالنوم؟

لفهم العلاقة بين تنظيف الدماغ والنوم، علينا أن نعود إلى سنة ٢٠١٣م، عندما أُجريت دراسة على أدمغة الفئران نُشرت في مجلة العلوم، وأظهرت أن انتشار السائل النخاعي في دماغ الفأر الحي أثناء استيقاظه كان ضئيلاً للغاية، تقريبًا لا شيء. وبعد أن يغطّ الفأر في نوم عميق، يبدأ السائل في التدفق بغزارة عبر أنسجة الدماغ وتنكمش الخلايا الدماغية، مما يفتح مسافات بينها، تسمح للسائل بالتدفق خلالها لإزالة المخلفات.

وعند قياس سرعة تخلص الدماغ من بروتين أميلويد بيتا (وهو إحدى نفايات الدماغ) أثناء استيقاظ الفأر مقارنةً بنومه، وُجد أن الدماغ النائم كان أسرع في التخلص منها. وهذا يشير إلى أن عملية التخلص من النفايات الدماغية، تكون في ذروة نشاطها خلال النوم العميق.

تم تفسير ذلك بأن تحسين تدفق الدم ونبض الشرايين، يعزز عمل شبكة تنظيف الدماغ. فعندما تستلقي للنوم، يصل خُمس الدم في جسمك إلى دماغك، فيتقلص حجمه بنحو ٦٠٪، وتنكمش خلاياه وتتسع المسافة الفاصلة بينها. وهذا بدوره يخلق فراغات بينية تمثل مسارات بين مليارات الخلايا الدماغية، مما يشجع تدفق السائل النخاعي بسلاسة أكبر، ويفتح القنوات الجليمفاوية المسؤولة عن طرد مخلفات الدماغ والفضلات البروتينية الضارة.

نظام سباكة ومضخات إيقاعية

أظهرت الدراسات الحديثة مجتمعةً، أن الحفاظ على عمل نظام إزالة النفايات من الدماغ يتطلب خطوتين

النوم العميق لا يقتصر على إعادة شحن الطاقة فقط، بل يطرد نفايات الدماغ ويُخلّصه من المخلفات البروتينية التي تُنذر بالإصابة بالأمراض العصبية الخطيرة، المعروفة بأمراض الدماغ المتسخ.

متميزتين؛ الأولى هي دفع النفايات إلى السائل النخاعي المحيط بالدماغ، والثانية هي نقلها إلى الجهاز اللمفاوي، ثم إلى خارج الجسم في نهاية المطاف. يظهر هذا الوصف الخطوتين كنظامين منفصلين، إلا أنهما مرتبطان.

ويعمل كلا النظامين مثل نظام السباكة في المنزل، حيث توجد أنابيب للمياه وأنابيب للصرف الصحي؛ يدخل الماء نظيفًا، ثم يُستخدم ويخرج ملوثًا. ولكن ما الذي يحرك هذه العملية ويدفع السائل النخاعي أثناء النوم؟ وكيف يستمر السائل في التدفق داخل الجهاز الجليمفاوي؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، راقب الباحثون معدل تدفق السائل النخاعي في أدمغة الفئران النائمة، واكتشفوا أنه بمجرد دخول الفئران في مرحلة النوم العميق، تبدأ مناطق عصبية متخصصة في إطلاق إشارات كهربائية بإيقاع بطيء ومنسق، تحفز هذه الإشارات الخلايا الدماغية وتحولها إلى مضخات صغيرة تدفع السوائل نحو سطح الدماغ. كما اكتشفوا وجود تزامن بين إطلاق الموجات وتدفق السوائل؛ فمن خلال قياس قوة الموجة الكهربائية يمكن قياس قوة تدفق السوائل.

وهكذا يندفع السائل النخاعي أثناء النوم من أعماق الدماغ إلى سطحه، من خلال شبكة متطورة من المضخات المجهرية، تعمل على امتصاص الفضلات الموجودة في هذا السائل. وهي شبكة متصلة ببعضها البعض، وتحتوي على صمامات تمنع التدفق العكسي، لتشكل في النهاية الأوعية اللمفاوية التي تصب الفضلات في مجرى الدم، الذي ينقلها بدوره إلى الكبد والكلى للتخلص منها خارج الجسم.

hiragate.com

قدمت الأبحاث المزيد من الأدلة التي تشير إلى أن تحفيز مناطق معينة في الدماغ يطلق موجات كهربائية بطيئة تدعم عملية التخلص من النفايات، وأن هذا التحفيز يزيد من تدفق السائل النخاعي النظيف إلى الدماغ، مما يساعد على طرد السائل الملوث خارجه. وعلى العكس، فإن تعطيل نشاط هذه المناطق الدماغية ومنعها من إصدار الموجات الإيقاعية، يؤدي إلى توقف تدفق السائل النخاعي، وبالتالي احتباس الفضلات داخل الدماغ.

بناءً على ذلك، خلصت نتائج الدراسات، إلى أن هذه الموجات الإيقاعية تتحكم في حركة السائل النخاعي أثناء النوم، على نحو يُشبه "دورة الشطف" في غسالة الأطباق.

دورة شطف ليلية

ما إن تطفئ أنوار غرفتك، ويستسلم جسدك لسكون النوم، حتى ينهض دماغك لتنظيف نفسه وطرد الفضلات المتراكمة خلال النهار. وبينما يسترخي جسدك، ينخرط دماغك في مهمة ليلية أشبه بتشغيل غسالة الصحون قبل الذهاب إلى الفراش، لتستيقظ بدماغ نظيف.

تبدأ دورة الشطف بإطلاق إشارة كهربائية تُحدث موجات إيقاعية واسعة وبطيئة، تعمل على إزالة الفضلات القابلة للذوبان المتناثرة على الأطباق. ثم يقل نطاق الموجات وتزداد سرعتها لإزالة بقايا الطعام اللزجة بشكل خاص. وعلى الرغم من اختلاف نطاق الموجات وإيقاعها، يظل الهدف الرئيسي واحدًا، هو إزالة أنواع مختلفة من الفضلات، وتنظيف الأطباق. ولهذا، قد يُعدّل الدماغ طريقة تنظيفه تبعًا لنوع الفضلات وكميتها.

وفي النهاية، تدفع الموجات السائلَ النخاعي من أعماق الدماغ نحو السطح، حيث يتم امتصاص الفضلات الموجودة فيه ونقلها إلى مجرى الدم، الذي يتولى بدوره نقلها إلى الكبد والكلى للتخلص منها خارج الجسم. فإذا كانت هذه الموجات الإيقاعية هي المسؤولة عن استمرار تدفق السائل الدماغي وبالتالي تسهيل دورة الشطف، فمن الذي يتحكم في توليدها؟

كلمة السر المفقودة

رصدت العديد من الأبحاث السابقة حركة المدّ والجزر في السائل النخاعي داخل الدماغ البشري، إلا أن هذا البحث يُعدّ الأول الذي حدّد النورإبينفرين (أو النورأدرينالين) -وهو ناقل عصبي أساسي لاستجابة "الكرّ أو الفرّ"، التي تُسبب انقباض الأوعية الدموية- كمحفّز محتمل لتلك الحركة. فمن خلال قياس تدفّق الدم وتتبع حركة السوائل ومستويات المواد الكيميائية ومؤشرات أخرى في أدمغة الفئران النائمة، اكتشف الباحثون أن عملية التنظيف تبدأ عندما تُطلق أدمغة الفئران "النورإبينفرين"، الذي يؤدي إلى تضييق الأوعية الدموية في الدماغ، مما يُفسح الطريق أمام تدفق السائل النخاعي.

الدماغ هو العضو الوحيد الذي تحيط به جمجمة، مما يعني أن له حجمًا محددًا؛ لذا في كل مرة يتغير فيها حجم الدم في الدماغ، يتعين على السائل النخاعي أن يتحرك للتعويض. وعندما ينخفض مستوى "النورإبينفرين"، تسترخي الأوعية الدموية وتتمدّد، مما يدفع السائل المحمّل بالنفايات إلى خارج الدماغ.

وقد قِيسَت هذه التوسّعات والتقلّصات في الأوعية الدموية على شكل تذبذبات إيقاعية تحدث كل خمسين ثانية تقريبًا، محدثةً تأثيرًا يشبه المضخة التي تُحرّك السائل في جميع أنحاء الجهاز الجليمفاوي أثناء النوم، ولكن ليس أيّ نوم؛ فقط النوم غير السريع، أو النوم العميق، والمعروف أيضًا بـ"نوم الموجة البطيئة". وكلما كان النوم أعمق، كان ذلك أفضل لتنشيط الجهاز الجليمفاوي، وأكفأ في التخلّص من نفايات الدماغ.

لماذا لا تتم عملية التنظيف أثناء اليقظة؟

عندما نكون متيقّظين فإن أدمغتنا لا ترتاح أبدًا. وهذا النشاط الدائم للعمليات الحيوية في الدماغ، يُنتج كمية كبيرة من المخلفات والنفايات، وإزالة هذه النفايات تتطلب كميات كبيرة من الطاقة المحدودة المتاحة لأدمغتنا. بينما يحتاج الدماغ -أيضًا- إلى قدر كبير من الطاقة، لنقل السائل الدماغي وترشيحه عبر أغشية خلايا الدماغ. لذلك، يتعيّن عليه الاختيار بين وضعين كلاهما يستهلك طاقته؛ إما أن يكون مستيقظًا ويفكر ويستقبل ويرسل الإشارات الحسية، أو أن يكون نائمًا ويقوم بتنظيف نفسه.

تمامًا كصاحب البيت أثناء حفلة في منزله؛ إما أن

hiragate.com

يُرحّب بالضيوف أو يُنظّف المنزل، لكنه لا يملك الطاقة الكافية للقيام بالمهمتين معًا.. لذا، يجب أن تتم عملية التنظيف في أوقات منفصلة، عن تلك التي يقوم فيها الدماغ بالتفكير ومعالجة المعلومات الحسية والأنشطة الذهنية الأخرى. ولهذا، يُؤجّل الدماغ عملية التنظيف إلى الليل؛ حتى لا ينشغل بها خلال فترة اليقظة التي يكون فيها في أوج نشاطه.

من جهة أخرى، تتطلب عملية تنظيف الدماغ وقتًا طويلاً، حوالي ثماني ساعات يوميًا. لذلك، يستغل الدماغ فترة النوم لتنظيف نفسه والتخلّص من البروتينات الضارة التي تُخلّفها الأنشطة المحمومة خلال النهار. ويشبه هذا -إلى حد ما- تأجيل الأعمال المنزلية خلال أسبوع العمل، لعدم وجود وقت كاف لإنجازها.

دقّت ساعة الاستحمام

تبدو المهام التي يقوم بها الدماغ لا نهائية، ولا تتوقف حتى أثناء النوم؛ فكل ليلة، بينما تدخل أجسامنا في سبات عميق، وتسبح عقولنا في عالم الأحلام، تتفرغ أدمغتنا لمهمة التنظيف، فلا حاجة لأن تظل نشطة ومنشغلة بالكامل كما في حالة اليقظة. وهنا تغطس في "جاكوزي" من الأمواج الإيقاعية، داخل حوض من دوامات السائل النخاعي، يساعدها على الاسترخاء وتجديد الطاقة، ويُخلّصها من المخلفات التي تراكمت خلال ساعات الاستيقاظ.

هذا النشاط الليلي المنتظم، يتم بطريقة آلية فريدة ومذهلة، على نحوٍ يشبه أعمال التنظيف المنزلي المسائية للتخلّص من الفوضى التي تراكمت طوال النهار، وهي مهمة روتينية تبدو بسيطة وغير مُقدّرة، وربما سخيفة، لكنها -أيضًا- في غاية الأهمية، ولا يمكن الاستغناء عنها.

تمامًا كما أن التوقف عن تنظيف المطبخ لمدة شهر، سيحوّل المنزل إلى مكان غير صالح للعيش، فإن عواقب إهمال تنظيف الدماغ، أخطر بكثير من مجرد الشعور بالحرج من اتساخ المطبخ، وتبعثر النفايات فوق أسطحه القذرة؛ فتعطيل نظام تصريف نفايات الدماغ قد يُبطئ الإشارات الكهربائية عبر نقاط الاشتباك العصبي، مما يؤدي إلى تلف الخلايا الدماغية وتعريض الوظائف الدماغية للاضطراب، ويجعل صحة العقل والجسم معًا على المحك.

وهذا من مصاديق الآية القرآنية العظيمة: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾(النبأ:٩)، أيْ جعلنا النوم راحة لكم، وقطعًا لأشغالكم التي إن استمرت أضرّت بأبدانكم وعقولكم.

ليس أيّ نوم!

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن الجهاز الجليمفاوي السليم، ينقل البروتينات الزائدة بكفاءة أكبر إلى الأوردة الخارجة من الدماغ أثناء النوم العميق.. وعلى النقيض، فإن عدم الحصول على قسطٍ كاف من النوم العميق، يقلل من كفاءة عملية تنظيف الدماغ، ويؤدي إلى تراكم السموم والنفايات الضارة. كما أنه يمكن التحكّم في نشاط الجهاز الجليمفاوي من خلال تحسين جودة النوم.

فالنوم العميق لا يقتصر على إعادة شحن الطاقة فقط، بل يطرد نفايات الدماغ ويُخلّصه من المخلفات البروتينية التي تُنذر بالإصابة بالأمراض العصبية الخطيرة، المعروفة بـ"أمراض الدماغ المتسخ".

ومن المدهش حقًّا، كيف أرهق الباحثون أنفسهم ليؤكدوا في النهاية، الحكمة البسيطة الموجزة التي قالها الأولون: "من زان نومه زان يومه"، التي سبقت نتائج الدراسات الحديثة إلى حقيقة أن نومك الجيد ينعكس إيجابًا على نشاطك وطاقتك في يومك.

ولكن المفارقة المدهشة أكثر، أنه كلما كشف الباحثون عن أهمية الحصول على عدد كاف من ساعات النوم العميق، ضَعُفت قدرة الإنسان على تحقيق ذلك. فكلما ازددنا علمًا بأسرار النوم وقدرته الهائلة على تجديد حيوية الدماغ، تقلّص أكثر عدد الساعات التي يمكن أن يقضيها دماغ إنسان هذا العصر بين موجات النوم العميق المعزّزة لصحة الدماغ.

ومع ذلك، ينبغي عدم التوقف عن محاولة تحسين جودة نومنا من خلال اتباع نمط حياة صحي، يتضمن الحفاظ على جدول نوم منتظم، وممارسة تقنيات الاسترخاء، وتجنّب التعرض للشاشات قبل النوم. ■

(*) طبيبة متخصصة في علم الميكروبيولوجيا الطبية والمناعة / مصر.

hiragate.com

أيهم العلي*

العوالم العُلْوية
عند فتح الله كولن

في رحاب الفكر الصوفي والفلسفي الإسلامي، يُنظر إلى الكون ليس فقط كمجموعة من المظاهر المادية، بل كمجال متداخل من العوالم العليا التي تنبثق فيها صفات الله ﷻ وأسماؤه، وتتشكل فيها مسارات إدراك الإنسان الروحي. فالوجود كله، بما فيه الغيب والشهادة، والمادي والمعنوي، والظاهر والباطن، يشكّل لوحة كونية متكاملة، يُرى فيها أثر الله ﷻ وإشاراته في كل شيء، فتصبح كل الكائنات شهودًا على عظمته، ومرآة لتجلّي صفاته ﷻ.

ومن هذا المنطلق، يقدِّم هذا المقال محاولة لفهم رؤية الأستاذ فتح الله كولن لـ"العوالم العُلْوية"، رؤية تنسج بين العقل والروح، وتكشف عن طبقات خفية في الوجود والكون.

إن ما يُعرض هنا ليس حقيقة مطلقة، بل قراءة متأنية لأفكاره، ومحاولة لاستجلاء كيفية تصور "كولن" لتداخل العوالم، وتأثيرها على الإنسان ووعيه وعلاقته بالوجود.

العيش في العوالم العلوية يعني أن كل فعل بشري يصبح انعكاسًا للحقائق الإلهية، وكل تجربة تعلّم الإنسان درسًا روحيًّا، وكل لحظة حياة تحمل فرصة للتقرب من الله.

ويستمد هذا التصور جذوره من القرآن الكريم، الذي أول ما وصف المؤمنين بأنهم "الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة"؛ ومن هذا الإيمان بالغيب ينبثق إدراك متكامل للعوالم، حيث تتكامل العوالم العُلوية مع عالم الشهادة المحسوس، مكونةً منظومة معرفية وروحية متوازنة. ومن خلال هذا الإطار، نسعى لفتح نافذة تأملية للقارئ، ليطل على الأبعاد الخفية للكون والوجود، ويقف على المعاني التي تتجاوز حدود الشهادة لتلامس الروح والفكر معًا.

إن تقسيم العوالم العليا ليس مجرد خيال فلسفي، بل محاولة منهجية لفهم مراتب الوجود، بدءًا من العالم المادي المعروف لنا بالحواس، إلى العوالم الغيبية التي تتجاوز قدرة الإدراك البشري. وقد قسم العلماء وأرباب السير والسلوك هذه العوالم إلى أربعة مستويات أساسية: اللّاهوت، الرحموت، الجبروت، الملكوت. كل منها يمتلك خصائصه الفريدة، ويكشف عن جانب من جوانب أسماء الله وصفاته.

١- عالم اللّاهوت: مرآة الوحدة الإلهية

عالم اللّاهوت هو قمة التجلّي الإلهي، حيث تتجلى أسماء الله وصفاته في أسمى صورها، بعيدة عن حدود الزمن والمكان، مفهومة فقط من خلال التأمل الروحي. يُنظر إليه على أنه المرآة الأولى للوجود، حيث يظهر الإله في وحدته المطلقة، جامعًا بين صفات الخلق والقدرة والرحمة، ومُدركًا لكل ما هو كائن وما سيكون.

في هذا العالم، تتجلى حقيقة الألوهية والمعبودية في آن واحد، فالله هو المعبود لأنه الله، والمقصود لأنه الغاية، والمحبوب لأنه صاحب الجمال المطلق. وقد عبر الصوفية مثل ابن عربي والغزالي عن ذلك، مؤكدين أن اللّاهوت ليس مجرد فكرة عقلية، بل تجربة روحية تصل بالإنسان إلى إدراك جزئي للحقائق الإلهية.

إن إدراك عالم اللّاهوت لا يقتصر على العقل، بل يشمل القلب والروح والوجدان. فالقلب، عندما يتحرر من الشوائب الدنيوية، يصبح مرآة صافية تعكس أنوار الصفات الإلهية، فتبدأ رحلة الإنسان في فهم وحدة الموجودات من خلال مركزها الإلهي الواحد.

يمكن أن نتخيل عالم اللّاهوت كضوءٍ مركز يفيض على كل العوالم الأخرى، نورٌ لا يُحد ولا يُقاس، بل يتدفق في كل جزء من الوجود، كما تتدفق أشعة الشمس لتضيء كل زاوية من الأرض، فتكشف الروح عن أسرارها العميقة وتعلّم العقل كيف يرى الجمال في كل مخلوق.

٢- عالم الرحموت: مظاهر الشفقة والإحسان

بعد عالم اللّاهوت يأتي عالم الرحموت، حيث تتجلى الرحمة الإلهية في كل مخلوق وكل تجربة حياتية. يظهر هذا العالم في تفاعل الإنسان مع الحياة، في رحمته بالآخرين، وفي نظام الكون المتكامل، من الحيوانات والنباتات إلى العلاقات الإنسانية الدقيقة.

في عالم الرحموت، لا يُنظر إلى الأحداث على أنها مجرد مصادفات، بل كشبكة من الإحسان الإلهي الموزع بحسب قدرات واستعدادات كل كائن. فكل نعمة، وكل لطف، وكل شفقة محسوسة،

هي انعكاس مباشر لهذه الرحمة. ويشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إلى الشمول اللامحدود للرحمة الإلهية، الذي يشمل كل الموجودات، من أصغر ذرّة إلى أعظمها.

يقول ابن القيم رحمه الله: "إن الرحمة مفتاح الحياة الروحية، فمن لم يعرف الرحمة، لم يعرف معنى الكون، ومن لم يلمسها في قلبه، لم يصل إلى سعة الله في رحمته". وهنا يظهر الفرق بين النظر إلى الكون كآلة جامدة، وبين النظر إليه كنسيج حي مترابط، كل جزء فيه يرسل إشارات الرحمة والتوجيه.

على المستوى الإنساني، عالم الرحمة يُعلمنا التعاطف والمغفرة، فنحن نرى في كل تجربة، في كل موقف مؤلم أو جميل، فرصة لاحتواء الآخرين، لتخفيف المعاناة، ولإدراك أن الحياة ليست فقط ما نراه بالعين، بل ما يشعر به القلب من لطف ورحمة.. وهكذا يصبح الإنسان وعاءً للأنوار الإلهية، يشاركها مع الآخرين في حياته اليومية، ويجعل من رحمته أداة لبناء مجتمع متوازن ومترابط.

٣- عالم الجبروت: سلطة القوة والعظمة

عالم الجبروت هو مستوى تجلّي القوة والسلطة الإلهية. يُعرف بأنه مركز القدرة الإلهية المطلقة، حيث تمتزج العظمة بالهيبة، وتظهر أبعاد الحكم الإلهي في كل تفاصيل الكون.

هذا العالم لا يُفهم كمجرد فكرة عقلية، بل كإدراك روحي للقدرة المطلقة التي تحكم الكائنات والأحداث، من أصغر فعل إلى أكبر تدبير كوني. إن فهم الجبروت يساعد الإنسان على استيعاب التوازن بين القوة والرحمة، بين القدرة على الخلق والحفاظ على النظام الإلهي، وبين التقدير الدقيق لكل حدث في الكون.

ومن هذا العالم جاء قول أحد العارفين: "إذا جلست أمام جبروت الله، تذوب كل الكبريات في صمتٍ رهيب، وتبقى الروح عاجزة عن وصف العظمة التي لا توصف." هنا، الجبروت ليس مرعبًا بالمعنى السلبي، بل يعيد للإنسان إحساسه بمكانته الحقيقية في الكون، ويحثه على التواضع والانضباط الروحي.

الجبروت يعلمنا أيضًا، أن كل قوة في الكون مرتبطة بإرادة الله ﷻ، فلا شيء يعمل خارج السياق الإلهي، ولا يوجد حدث بلا حكمة. من هذا المنظور، القوة ليست مجرد هيمنة أو تسلط، بل انتظام وتوازن يضمن استمرار الحياة وفق قانون إلهي متقن.

٤- عالم الملكوت: الباطن والظاهر في التفاعل الروحي

عالم الملكوت هو الجسر بين الغيب والشهادة، بين الروح والمادة.. هو عالم الأوامر الإلهية والتجليات الروحية للكون المادي، حيث تتفاعل الظواهر المادية مع الطاقات الروحية.

في هذا العالم، يدرك الإنسان أن الوجود المادي ما هو إلا انعكاس لطبيعة روحية أعمق، وأن قلبه هو بوابة للوصول إلى تجليات الملكوت. ومن خلال التأمل، يمكن للروح أن تتعرف على نفسها كجزء من النظام الكوني، وتفهم أن كل حركة في الكون مرتبطة بالوحي الإلهي، وأنه لا شيء يحدث خارج إرادة الله المطلقة؛ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(الأنعام:٥٩).

تجربة الملكوت تجعل الإنسان يعيش الزمن بطريقة متكاملة: الماضي والحاضر والمستقبل جزء من لحظة روحية واحدة، حيث لا تقف القيود المكانية والزمنية، حاجزًا أمام الإدراك الروحي. وهنا يظهر الإنسان كعالم مصغر، تتفاعل فيه القوى المادية والروحية، فتصبح حياته اليومية تدريبًا عمليًا على الانسجام مع النظام الكوني.. وفي هذا العالم كان عمر بن الخطاب ﷺ عندما نادى على المنبر: "يا سارية الجبل!".

يمكن تشبيه الملكوت بشبكة خفية من النور، تنسج بين كل جزء من العالم، فتُظهر العلاقة بين السبب والنتيجة، بين الكلمة والفعل، بين النية والحدث، حتى يصبح كل شيء رسالة، وكل تجربة اختبارًا، وكل قلب وعاءً لتلقي إشارات الحقيقة الإلهية.

التداخل بين العوالم وتجربة الإنسان

العوالم الأربعة ليست منفصلة، بل متداخلة، كل عالم يظهر الآخر بعمقه وظاهره. فالمشاهدة الروحية تبدأ من الملكوت، وتمتد إلى الجبروت، ثم الرحموت، وصولاً إلى اللّاهوت. وفي كل مرحلة، يخضع الإنسان لتجربة مختلفة: الإدراك العقلي، الحس الروحي، التأمل القلبي، والتواصل مع القوة الإلهية.

الإنسان، من خلال قلبه وروحه، يمكن أن يختبر هذه العوالم تدريجيًّا، وأن يستخدمها لفهم الحياة اليومية، من التعاطف مع الآخرين، إلى التعامل مع قدره الشخصي، وصولاً إلى إدراك الوحدة الكونية لكل شيء. كل عالم يمثل طبقة من المعرفة الروحية، وكل طبقة تكمل الأخرى، فتتشكل صورة كلية للوجود.

التأمل الإنساني وروحانية الحياة اليومية

العيش في هذه العوالم يعني أن كل فعل بشري يصبح انعكاسًا للحقائق الإلهية، وكل تجربة تعلِّم الإنسان درسًا روحيًّا، وكل لحظة حياة تحمل فرصة للتقرب من الله ﷻ. إن العقل والفكر لا يكفيان وحدهما، بل يجب أن يُصاحبهما القلب والوجدان، حتى يمكن إدراك الروحانية الحقيقية في الحياة اليومية.

في عالم اليوم المليء بالتحديات، من ضغوط العمل، إلى الصراعات الاجتماعية، إلى الانشغال المفرط بالتكنولوجيا، يصبح فهم هذه العوالم ضرورة لتحصين الروح، وتنمية الصبر، وتعميق الحكمة، وتوجيه الطاقة نحو الخير. فهي ليست مجرد فلسفة، بل خارطة حياة عملية تساعد على مواجهة الضغوط بعقل متزن وقلب صافٍ وروح متألقة.

إن دراسة العوالم العليا ليست مجرد مسعى فكري، بل رحلة روحية وفكرية تقود الإنسان إلى إدراك جمال النظام الإلهي وكمال صفاته. من اللّاهوت إلى الملكوت، ومن الرحموت إلى الجبروت، تتكشف للإنسان أسرار الوجود، وتصبح حياته اليومية مرآة لتجليات الله ﷻ في الكون.

إن إدراك هذه العوالم يُعزز التوازن الروحي والأخلاقي، ويحفز على العبادة الصادقة والتأمل العميق في خلق الله ﷻ. ومع كل خطوة في هذه الرحلة، يقترب الإنسان أكثر من فهم توحيد الله ووحدانيته وارتباطه المباشر بالمصدر الأسمى لكل شيء، فيصبح القلب مرآة صافية، والروح وعاءً للأنوار، والعقل مرشدًا لفهم المشاهد الإلهية، لتكتمل رحلة الإنسان بين المعرفة والعمل، بين الفكر والتجربة، بين الظاهر والباطن، في رحلة مستمرة نحو القرب الإلهي.

وهكذا، تتحول الحياة اليومية إلى مدرسة روحية، حيث يتعلم الإنسان كيف يكون رحيمًا، كيف يوازن بين القوة والعدل.. كيف يختبر تجليات الله ﷻ في كل لحظة، وكيف يجعل من قلبه وعاءً مضيئًا يعكس جمال الخالق، فيصبح كل عمل وكل موقف وكل تجربة درسًا حيًّا في رحلة الارتقاء الروحي والفكري. ■

(*) كاتب وباحث سوري.

المراجع

(١) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح ٢، محمد فتح الله كولن، دار الانبعاث للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٢٣م.

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية فصلية
تصدر عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
صابر المشرفي

مدير التحرير
إسماعيل قايار

سكرتير التحرير
أحمد السيد

الإخراج الفني
أحمد شحاته

تصميم الغلاف
محمد نور الدين

نوع النشر
مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-104

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ١٥٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841

GERMANY
Linemarketing
Heinrich-Pesch-Str. 14
50739 Köln
Phone: +4917640713054

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525

USA
Ant Bookstore
345 Clifton Ave
Clifton, New Jersey 07011
Phone: +17324769831

www.hiragate.com
@hiramagazine
@hiramagazine
@hiragate
@hiragate
@hiragate
@hiragate

- نافذة تطل على معنى الخلود
  في فكر المصلحين.
- مسيرة رجل لا يزال ينادينا من علياء رسالته:
  عِش لله تكنْ خالدًا في قلوب البشر.

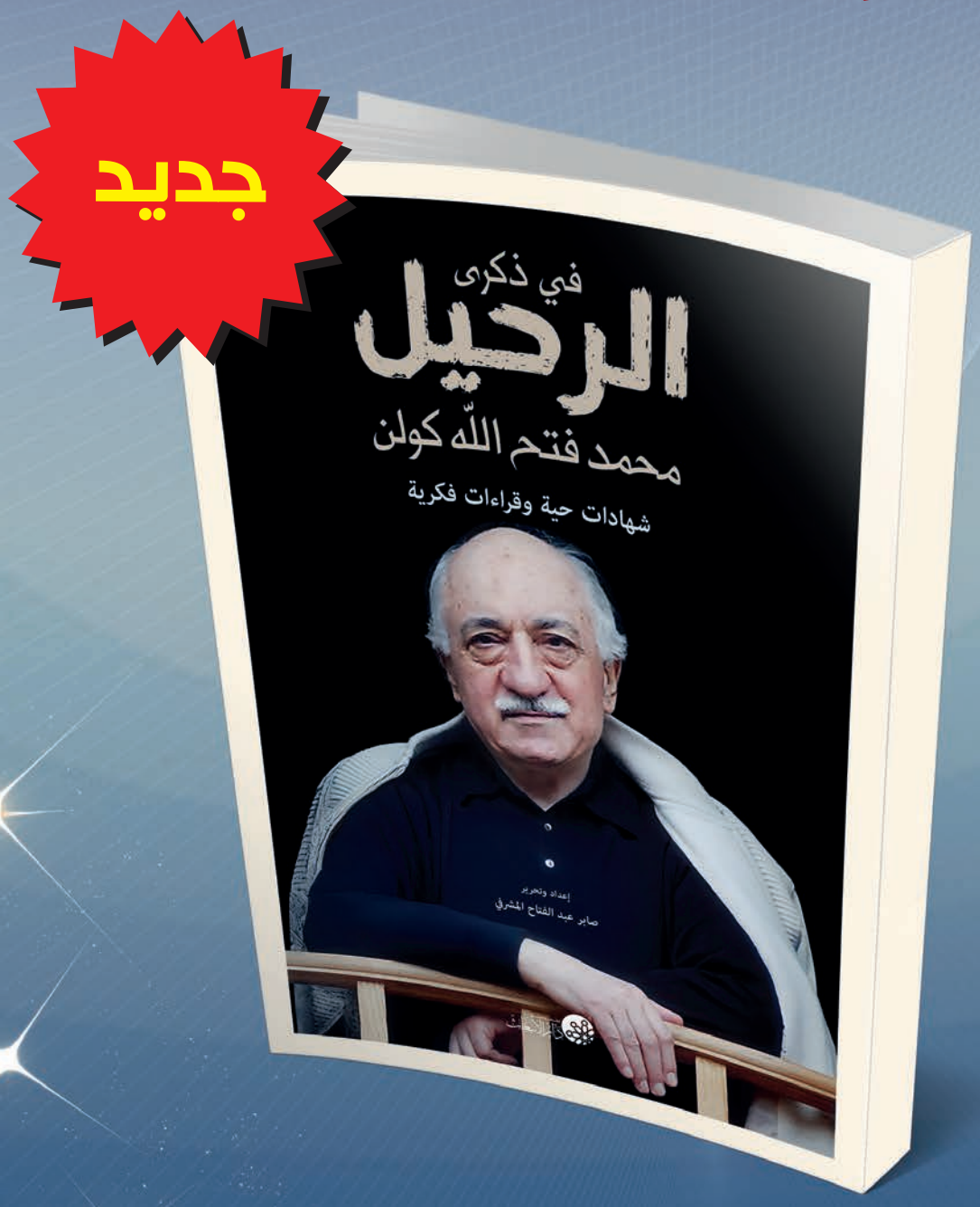

للتواصل مع: إدارة المجلة
hiragate@yahoo.com
+2 0114 782 4322

مركز التوزيع: دار الانبعاث
daralinbiath@gmail.com
+2 0102 320 1002

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

شجرة الوصل

صِلِي الأُفُقَينِ بَعضَهما وَشُدِّي ... وَمِنْ هَدْي السَّمواتِ اسْتَمِدِّي
وَخَلّي الفاصِلِين بما أَضَلُّوا ... ولا تُصْغِي إليهم لا تَرُدِّي
غُصونُكِ فارْفَعيها في شُمُوخٍ ... وجذْرَكِ في عميقِ الأرضِ مُدِّي

ISSN 2357-0229
05
022004
9 772357
www.hiragate.com

موقع مجلة حراء